







آرثور شوبنهاور

فن أن تكون دائماً على صواب

ترجمة:
د. رضوان العصبة

مراجعة وتقديم:
د. حسان الباهي

مسائل فلسفية





أن تكون دائماً على صواب
أو الجدل المرائي

آرثور شوبنهاور

ترجمة:

د. رضوان العصبة

مراجعة وتقديم:

د. حسان الباهي





منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING


فن
أن تكون دائماً على صواب
أو الجدل المرائي



الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-0931-5



4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

المحتويات

تقديم

يلاحظ الناظر إلى عالم اليوم أن التواصل أضحى سمته ووصفه، وأن الإقناع مراده ومطلبه، وأن الحوار نهجه وطريقته، وأن الحجة آلته وسلاحه: فهذا محامٍ زادُه الحجة، إنْ هو عدمها، فوّت على نفسه - بلغة شوبنهاور - فرصة حقيقية، وخسر قضيته؛ وذاك سياسي يدافع عن برنامجه الحزبي بشتى الوسائل، واصفا كل معترض بشتى النعوت، وثالث إنسانٌ عادٍ بنى حياته اليومية على الحيل والمكائد؛ وقس على هذا المنوال في تحديد أصناف الناس وطبائعهم. وعليه، يمكن التسليم بأن من النظار من لا يقصد إلا نصرة الحق، ومنهم من ينصر ما اعتقده بغير دليل، وصنف ثالث لا يبالي فيما صرف كلامه، فتراه يستجمع حججه دون مراعاة مدى صحتها ومشروعيتها. وعليه، لما كان الهدف من كل عملية حجاجية هو الإقناع والاقتناع، وجب الالتزام بمجموعة من الضوابط النظرية والعملية حتى لا ينفلت الخطاب ويخرج به المخاطب عن سياق القول، وعن قصد المتكلم. ولتلافي مثل هذه الانزلاقات وجب الاحتراز من أي استخدام لحجة ما لأغراض تمويهية وتضليلية. ذلك أن سمة المغالط تكمن بالأساس في استناده إلى أساليب تضليلية وتمويهية تقوم على الإخفاء والتعتيم؛ ومع ذلك يحاول أن يجريها مجرى منطقيا حتى يخدع الخصم ويجعله يأتي بفعل ذميم، أو يظهر بمظهر مضحك. كل هذا يقتضي العمل على تبيان المقصود من كل كلام موجه لغيرنا، بنفس الكيفية التي نحن مطالبون بتدبر كل كلام يتوارد

علينا. فمن تلفظ بلفظ فعليه تحديد المعنى الذي قصد إليه، لأن ذلك هو السبيل لتلافي أي تغاير بين المقصود والمفهوم. وبالجملة، وجب على العارض، كما على المعترض أن يجتهدا في ضبط اللفظ وتهذيبه وصيانته من كل ما يمكن أن يخل بمعناه ويعيق عملية الفهم والإفهام.

مادام مبتغى المغالط هو الإيقاع بخصمه، فإن عماده استخدام سبل ترغيبية وترهيبية قادرة على صرف الخصم عن الهدف الحقيقي. وهو ما يجعلنا نلخص سمته الأساسية في كونه شخصا يظهر خلاف ما يبطنه، سائلا كان أم مجيبا. فهو قادر بأساليبه التدليسية والتمويهية على إلباس الكذب صفة الصدق، والباطل صفة الحق. فقد يأتي بحجة مقبولة ظاهريا لكنه في الباطن يراعي حجة أخرى مموهة وهدفا آخر تغليطيا. فأعظم سلاح المغالط هو التلبيس والتدليس، أي ديدنه أن يعتمد الحجج الملتوية المرائية وأن يدع المستقيمة منها. ولمّا كان الإنسان آثر لتلك المرائية وأهرع إليها، لِما في طبعه من أنانية ومحبةٍ للذات، إذ ليس عنده أوغل في المهانة من رؤيتها منكسرة ذليلة، ولِما عرف به من ميل إلى الخديعة والمكيدة، ولِما أحطت به من أنّ طريق قويم الحجج وصائبها أضيق، وأنّ طريق ملوي الحجج وكاذبها أرحب؛ وجب فحص هذا النمط من الحجج المرائية والمموهة قصد الوقوف على طبيعتها، ومن ثَم، تحديد سبل نقضها. ذلك أنّ كل معتمد على حجج مموهة يفرض علينا خيارين: إما أن نبين مكمن المغالطة، فنقطع عليه مكالمته؛ وإما أن نجاريه في ذلك، ونعمل على التصدي له ونقض مغالطته. وما دام الأمر كذلك، فقد بانت أهمية العلم بالمغالطات للاقتدار على نقضها والتصدي لمختلف أساليب التضليل والتغليط. فعلى ناقض المغالطات أن يكون داريا بأصول وضوابط الصناعة، وأن يمتلك قدرات تحليلية وتقويمية تمكنه من اكتساب مختلف آليات العرض والاعتراض. فمن

علمها وعمل بها نجح في أن يقطع على المغالط تدليله، وربما عكسه ضده، وقلب الحجة عليه. ولئن كان من يجهل القانون لا يُعذر، فإنّ من يجهل هذه الحيل أو المغالطات أولى به أن يغلب ويهزم. فمن أتقن هذا النوع من الجدل وأجاد أساليبه، فالنصر حليفه سواء في ذلك أكان محقا أو مخطئا. وبيان ذلك أن يقال إن الحق ما قويت حجته وإنّ الباطل ما ضعفت حجته. بالتالي، فمن حاز قوة الحجة فقد حاز الحقيقة، ومن عدم قوتها فقد عدم الحقيقة. ثم إنه لما كان الإنسان شديد الاعتداد بنفسه، مدَّاحاً لها ثنّاءً عليها، فإنه قد يميل إلى تصور نفسه المالك الوحيد للحقيقة، وليس طرفا في بنائها. فالحقيقة ما يراه ويعتقده هو، لا ما يعتقده غيره. لكن ماذا لو كان هذا هو حال الطرف الآخر؟ ففي مثل هذا الوضع قد يتعصب كل طرف لموقفه ويدعي أنه وحده من يمتلك الحقيقة، ليتحول الحجاج بموجب ذلك إلى عراك وخصام قد تحضر فيه كل أنواع القذف والشتم والخروج عن التعفف وحدود اللياقة والاحترام. إنّ من يجادل في مثل هذا الظرف، لا يجادل لأجل الحقيقة، بل لأجل دعواه، صادقة كانت أو كاذبة. ولتحقيق مبتغاه يلجأ إلى مختلف أساليب الوعد والوعيد والترغيب والترهيب. فمادام الهدف هو النصر والغلبة، فلا يقبل أحد ولا يرضى أن ينكشف بمظهر الضعيف والمغلوب. زِدْ على هذا أنّ إثباتنا قد يكون صادقا، ولكن حجتنا ضعيفة أو كاذبة، وبالمقابل فإن إثبات الخصم قد يكون كاذبا، لكن حجته قوية، لهذا تنشأ فينا قناعة تقضي بضرورة مهاجمة حجة الخصم. خلاصة القول أن لا حقيقة إلا بالحجة. فمن عقل الكلام فقد عقل حجته، ومن كلم العقل فقد كلّمه بحجج مقنعة.

يقف شوبنهاور في كتاب "فن أن تكون دائما على صواب" على نماذج من الحيل التي يتم الاستناد إليها عندما تتنازع الأطراف المتحاجة

وضعا معينا. فقد يسعى كل طرف أو أحدهما إلى النيل من خصمه باعتماد مختلف الوسائل المتعلقة بالأقوال وبالأحوال. وتتفرع سبل التغليط إلى تلك التي تبنى على اللغة باستخدام حيل لغوية من قبيل إخفاء القصد واستغلاق العبارة واستعمال مقدمات كاذبة وطي بعضها وإخفاء محل الكذب، وغير ذلك من السبل الكفيلة بجعله يمرر خطابه ويجعل حجته مقبولة على الأقل ظاهريا. أما النمط الثاني فيقوم على استخدام أساليب سلطانية من قبيل التهجم على الشخص والاستعانة بالسلطة والجمهور، وغيرها من الأساليب القائمة على الإكراه المادي والمعنوي. وبالجملة، نصنف سبل التغليط إلى تلك التي ترتكز على الاستعجام والاستغلاق والتمويه، وأخرى تقوم على التغالب والاستعلاء. وعليه، يتبين أن قارئ هذا الكتاب يدرك مدى أهمية معالجة موضوعات المغالطة، بهذه الطريقة التي عالجها بها شوبنهاور، حيث أكد الكاتب على أن الغرور هو السمة الأساسية عند الإنسان، وأنه لو اعتمد على النزاهة الفكرية وانشغل بالحقيقة لما كان هناك داع لمثل هذا الكتاب؛ لكن السعي الدؤوب إلى إثبات الذات وعدم النزاهة الفكرية وعدم انشغال الناس بمطلب الحقيقة يعكس أهمية مثل هذا الكتاب. فلو كنا نزهاء لما بحثنا إلا عن الحقيقة، لكن الناس ميالون إلى الثرثرة وإلى الكلام قبل التفكير، وإلى إظهار عكس ما يبطنون حتى عندما يظهر كذب ما يدعون.

إنّ ترجمة كتاب "فن أن تكون دائما على صواب" إلى اللسان العربي، يجد تبريره الأول في ضرورة العودة إلى الاهتمام بدرس الحجاج بما هو فعالية تداولية جدلية أمرها أن تجمع بين الفهم والإفهام، والإقناع والاقتناع في نصرة الحقيقة وإحقاقها. وثاني التبرير كون شوبنهاور اشتهر كفيلسوف، كما يشهد على ذلك كتابه "العالم

كإرادة وتمثل"، أما شوبنهاور المنطقي المنظر للخطاب، ينهض دليلا على ذلك كتابه العمدة "فن أن تكون دائماً على صواب أو الجدل المرائي"، فهو في طي الغمرة خامل الذكر نكرة؛ فأنت تكاد لا تجد لاسمه ذكرا في عديد الكتب التي اهتمت بموضوع الحجاج والمغالطات خاصة، رغم قيم إسهامه وعظيمه. وقد حان الوقت لإعادة الاعتبار لهذا الكتاب وذلك من خلال ترجمته. وهي المهمة التي توفق فيها الباحث رضوان العصبة مترجم هذا الكتاب. وسيدرك قارئ الكتاب جهد الباحث في هذه الترجمة سواء على مستوى المفاهيم أو اللغة، مما سيتيح للقارئ العربي الإطلاع على كتاب من أهم الكتب التي نشرت في العصور الحديثة عن المغالطات. وقد بذل الباحث جهدا حتى يحافظ على النص دون أن يكون مكبلا بالمعاني الحرفية للألفاظ، فجاءت الترجمة أمينة ودقيقة، ومفيدة في نفس الآن.

وفي الختام، نقول إنّ العودة إلى درس المغالطات ليس من باب الترف الفكري ولا من قبيل إحياء القديم فقط، بل ضرورة مردها إلى التحولات التي يشهدها العالم المعاصر على مستوى سبل التواصل وآليات الاتصال، والتي استرجعت فيها طرق التضليل والتغليط مركز الصدارة في التعامل بين الناس. بالتالي، فإن اهتمام العديد من الدراسات المعاصرة بمجال المغالطات يبرر أهمية العودة إلى أعلامها ممثلا هاهنا عندنا بشوبنهاور.

حسان الباهي

جامعة ابن طفيل

مقدمة المترجم

إنّا نشهد اليوم تحولا ابستيمولوجيا يقطع مع اليقينية، ليتبنى النسبية، فلا شيء يقيني، بل كل شيء نسبي: إنما فرض العقل الحديث أنه بُنِيَ على اليقين وعلى المطلق، وهو ما ليس يرتضيه العقل النقدي المعاصر الذي شأنه المراجعة المستمرة، والذي ديدنه التصحيح والتعديل المتواترين؛ فاستعاد الوهم والخطأ مكانتهما، وهجرا الهامش، لينافسا الحقيقة على المركز. لذلك استرجعت المغالطات حق وجودها بل مشروعيتها، فأشبهت في ذلك منهج الدحض والقابلية للتكذيب عند كارل بوبر الذي اعتبر كل نظرية علمية قابلة للتفنيذ، من حيث أن المغالطات هي الأخرى أقدر على تبكيت الدعوى وتسفيهها، إذ لا دعوى إلا وممكن تفنيذها، فكان أن عاد أهل الاختصاص إلى السفسطة وأعلامها، فأنصفوهم إذ هم ظلموا، وأكبروهم إذ هم بخسوا، وبعثوهم إذ هم أميتوا. إنّ هذه العودة تجدها مثلاً عند المدرسة الهولندية في كتاب: "السفسطات من منظور تداولي جدلي"، كانت الغاية منه عند إيمرن وخروتندورست إدماج السفسطة في الحوار النقدي بعد إجراء التحويلات اللازمة عليها، وتلفيها أيضا عند هامبلان في كتابه "السفسطات"، وعند وودز ووالتون في كتابهما "الحجج: منطق السفسطات". هذا ما يبين لك أهمية المغالطات ولزوم إيلاء العناية بها تأليفا وترجمة. وإنّا نقدم إليك اليوم ترجمة لكتاب أحد أولئك الذين ألفوا في هذا المجال عهد الحداثة، عنينا به الفيلسوف الألماني آرثور

شوبنهاور؛ إنه كتاب "فن أن تكون دائما على صواب أو الجدل المرائي". وإليك مدخلاً إلى كتابه هذا المسمى اختصاراً بسميٍّ "الجدل المرائي"، ليس يغنيك عن قراءة النص الأصل، بل حسبه أن يقرِّبك ويهيِّئك:

فنقول إنَّ الحوار عند النظار من أهل الاختصاص نوعان: أحدهما قائم هو على التعاون، وفيه نستند إلى مسالك عقلانية نقدية أمرها أن توصلنا، إنْ نحن التزمنا بضوابطها، إلى تحصيل المطلوب، وذاك هو الحوار أو التفكير النقدي عند المدرسة الهولندية وصاحبيها فان إيمرن وخروتندورست. أما الثاني، فحوار يقوم على الإعجام والتغالب والاستعلاء، دأبنا أن نقصد فيه إلى الإقناع إما بالحجة المغلطة المضللة، أو باعتماد طرق القوة والعنف والإكراه المادي والمعنوي. وذلك هو الحوار المموه أو قل الجدل المرائي (أو المشاغبي) بتعبير شوبنهاور الذي أصاره موضوع كتابه.

يبدأ شوبنهاور كتابه معرفا الجدل، فيقول إنّ الجدل المرائي هو فن للمحاكة، سبيله أن يجعلنا دائما على صواب، أي بما هو مشروع وغير مشروع (أي بجميع الوسائل المتاحة). فأفاد هذا أمرين قام الواحد منهما على الآخر وتعالقا، باديهما أن هذا الجدل قصده الغلبة ومرامه الانتصار، وثانيهما أن من بغى ذينك استوسل المشروع من الأمور وغير المشروع منها، واحتال وكاد. ولما كان الأمر، كذلك استفسر عنه شوبنهاور واستفهم، فكان منتهى الفهم أن هو وجد الكبرياء الفطرية للكائن الآدمي شأنها أن لا تقبل أن يظهر إثباتنا كاذبا، وأن لا تقبل أن يكون إثبات الخصم صادقا. أنْ يُغلَبَ المرءُ ويُهزَمَ، فتلك هي الذلة والشماتة، لذلك ترى الواحد منا يفرغ الجهد ما أمكنه ذلك ذودا عن كبريائه وصونا لها، فيعمد إلى صادق الحجة وصحيحها أو قل

مستقيمها، إنْ هو أنس من خصمه ميلا إلى الحق وإيثارا له، أو يجنح إلى كاذب الحجة وخاطئها أو قل ملويها، إنْ هو لقي من الخصم تعسرا واعتياصا. والذي عند الرجل أن الحقيقة ملك لذاك الذي حصل حجتها مستقيمها وملتويها، وأن الحجة سلاح دأبه أن يفرض الحقيقة الفرض وينتزعها الانتزاع، وقوة ديدنها أن تضع الحقيقة وضديدها الباطل؛ وفي هذا عمق نظر وعظيم درك؛ فإن هو كان نيتشه أعمل تقويضه ومطرقته في موضوعات الفلسفة أو قل أصنامها، فكان أن استفرد برأي في الحقيقة فريد عجيب لمّا عدّها انتاجا بل صناعة بيد الأقوياء، أي مفعولا لإرادة القوة، فإنّ هذه الفكرة تجد حضورها التكويني عند شوبنهاور، إذ لا وجود للحقيقة إلا تلك التي تملك قوة الحجة أو قوة السلطة أو هما معاً.

إنّ الجدل إذن، إن هو حقق أمره، تبين أنه فن أن نكون دائما على صواب، وفن لتمرير الدعاوى على أنها صادقة؛ فهو إذن ليس ينشغل بالحقيقة الموضوعية مثلما هو الأمر عند أرسطو، مادامت هذه الأخيرة ليست وجودا قبليا وإلا امتنع الحوار وكف البحث والاستقصاء، ولَمَا قامت للفلسفة قائمة، بل إنها وجود بعدي يقيمه التحاور وينشئه الجدل. وإنْ هو كان أرسطو قد فصل بين الجدل (الحقيقة المشهورة) والسفسطة (المغالطات)، فإنّ شوبنهاور قد وصل بينهما. لذلك وجدنا الكثير من الحيل التي أوردها في كتابه مأخوذة هي من كتابي الجدل والسفسطة لأرسطو، لِمَا علمت سابق العلم أنه ليس يميز بينهما لوحدة غرضهما ومشترك مقصودهما. ويعدد شوبنهاور في كتابه ثمانيا وثلاثين حيلة شأنها أن تنصر الدعوى (الحق) أو تحق نقيضها (الباطل)، وهيَ المعروفة عند أرسطو باسم المواضع topiques les، topi (المواضع الجدلية في كتاب الجدل، المواضع المغالطية

أو الأمكنة المغلطة في كتاب المغالطات، المواضع الخطابية في كتاب الخطابة). ويؤاخذه شوبنهاور على اهتمامه بالجانب النظري وإغفاله الجانب التطبيقي العملي، هذا الجانب الذي انصرفت عناية صاحبنا إليه، يقول: "أكبّ أرسطو في الطوبيقا بروحه العلمية المعتادة، على تأسيس الجدل بطريقة جدِّ منهجيةٍ ونسقيةٍ، الأمر الذي يستحق إعجابنا وإن كان الهدف، وهو هنا عملي بالطبع، لم يتحقق فعلا... لا يبدو لي أنه بلغ هدفه، وقد حاولت معالجته بشكل مغاير". وبالجملة، فإنّ هذه الحيل جميعها تؤول إلى أسلوبين هما: ad rem (الحجة على الموضوع) وad hominem (الحجة على الذات)، وإلى طريقتين: دحض مباشر، ودحض غير مباشر ينقسم إلى العكس والحجة الفرعية. بالنسبة للأسلوبين، أعتقد أنهما وردا على التوالي عند أرسطو في كتاب الجدل باسم تبكيت الحجة وتبكيت الخصم. وختم الكلام عند شوبنهاور أنه ليس تخلو مطارحة من إعمال ذينك الأسلوبين والطريقتين.

وجدير بالذكر أن العودة إلى شوبنهاور المنطقي اليوم، إنما هي لدوافع كثيرة ليس المقامُ مقامَ الخوض فيها جميعها، وحسبنا منها أن نقول أنّا قد وقفنا على التأليفات في موضوع الحجاج، فأثارنا ذلك الإبهام واللبس، بل الخلط أحيانا في بعض المفاهيم المحصورة العدد، نذكر منها خاصة ad hominem، إذ أنّ جل الكتابات تكاد تتفق على أن معناه التوجه إلى شخص الخصم والطعن فيه، أو هو بتعبير أحد الباحثين في مجال الحجاج ذلك المسلك الحجاجي الذي يقوم على القدح في شخص المخالف في الرأي، وقد بني هذا الفهم، حسب ما نظن، على اجتهادات دوجلاس والتون وتأويلاته خصوصا في كتاب له بعنوان "ad hominem arguments". أما شوبنهاور فيقطع في المسألة لّما هو ميز بين ad hominem وad personam، فتبين لنا إذن أن

مقصود هؤلاء هو ad personam وليس ad hominem، لاسـيما إذا انتهى إلى علمك مفهوم آخر عنده هو ad rem. وإنّ الذي يدعم ما نقول، يمكن أن نلتمس له الدليل عند جون لوك في كتابه "مقال في الفاهمة الإنسانية"، وأيضا عند أول من وضع هذا المفهوم اللاتيني في تقديرنا، وهو فرانسوا غاراس François Garasse في كتابه "غريب مذهب الأذهان الجيدة لهذا العصر la doctrine curieuse des beaux esprit de ce temps". فلتكن هذه إذن بدايةً لإعادة النظر وإطالته في هذا المفهوم، وإنّا لسنا ندّعي أننا قد وقفنا على تمام مقصوده وغاية مرامه، إنما هي الإيماضة والإشارة، والدعوة إلى التفاكر والتناظر. ونزيد أمرا تعلق بالنقل العربي للمفهوم وأخرى، لم نستسغه و لم نجده جامعا مانعا.

وختم الكلام أن نتوجه بخالص الشكر وجزيله إلى الأستاذ بجامعة ابن طفيل بالقنيطرة الدكتور حسان الباهي، إذ هو أعان فأغنى، وإذ هو صوّب فأجلى، وإذ هو ظل مواكباً مصاحباً لهذا العمل حتى أتممناه فأخرجناه. ونتمنى أن يفيد هذا العمل القارئ العربي وأن يجد فيه ضالته، وأن يكون إضافة في باب الحجاج وتبصرة. وليكن آخر كلامنا قول العماد الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ هذا لكان يستحسن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على كافة البشر».

رضوان العصبة

2012/08/28

تنبيه

- الهوامش المشار إليها بالعدد نجمة هي من وضع مؤلف الكتاب.
- الهوامش المشار إليها بالعدد وحده هي من وضـــع المتـــرجم إلى العربية.

حرب الكلام

يحيل اسم شوبنهاور في الغالب إلى ضرب من الفلسفة سوداويٍّ وإلى ضربٍ من الفكر ضجورٍ سؤومٍ من الوجود. وحده يهيمن على تشاؤم مؤلف "العالم كإرادة وتمثل"، حاجباً تفكيره في العلوم والمنطق غاشيه. تفكير الحياة كقوة دونما غاية خاصة، وكصيرورة عمياء، سيكون غيرَ مبال، بل معادياً لكل عقلانية. ومع ذلك، فقد اهتمّ فيلسوفنا دائما بالأنساق المنطقية، وبصور الاستدلال، بشكل أكثر تاريخيةً منه إبداعيًّا حقاً. لنذكر أنّ فكره كان تقريبا دائما محاجًّا عليه لأجل برهنة دقيقة. هذا "اللاعقلاني"، هذا المنظر لإرادة الحياة، شديد الاهتمام بمنطق الخطابات. طبعا، يتضمن نهجه، بما هو ميتافيزيقا الحياة، قطيعة مع باراديغم الفيزيائي - الرياضي الذي يحكم مؤلف كانط. ويُشيِّدُ شوبنهاور، بشكل أكثر حسما، كمعاصريه شلينغ وهيجل، نسقا - عرضه ألكسيس فيلوننكو Alexis Philonenko[1] - يفترض لأول مرة في تاريخ التفكير الفلسفي تبخيسا للنموذج الرياضي. والمنطق، كما يفهمه، يركز بالخصوص على مشكل الحكم، ويرتبط حصريا بالصور القولية للاستدلال. هذا ما يفسّر اهتمامه بالتقليد القديم: بسقراط وأفلاطون، ليس دون كثير تحفظ، لكن خصوصاً بكتابي الأورغانون لأرسطو، أي الطوبيقا

1 مؤرخ فلسفة فرنسي، ولد سنة 1932، متخصص في الفلسفة الألمانية (كانط وفيخته).

والتبكيتات السفسطائية، وبالطبع الخطابة التي اعتبرها أرسطو كملحق للجدل.

إنه عبث إذن أن نبحث عند شوبنهاور عن قيِّمِ ملاحظات تخص المنطق على هذا النحو، وحول موجهات الأحكام، أو حول إسهام الرياضيات في تكوين صور الاستدلال. بخصوص هذا الأمر، يَكتَفِي بالرجوع إلى المؤلف النقدي لكانط. وقد أخِذ نص "فن أن تكون دائما على صواب" من مؤلفاته بعد الوفاة، ونشر سنة 1864. جدّة هذا المؤلف المقتضب، كما في التقليد الأرسطي، هي تحليل شكلٍ من الخطاب هجرته الفلسفة مذ عهد القدامة، رغم كونه الأكثر قربا إلى استعمالنا اليومي للغة. يتعلق الأمر بهذا الفن من الحوار الذي هو المطارحة. لا شيء جدّ مألوف وأيضا جدّ عادٍ أكثر من هذا التحاور بين متجادلين أو أكثر، والذي خلاله تتقرر سيطرة أحدهما. ومع ذلك، يتطلب هذا الاختبار لقدرتنا على الإقناع في علاقتنا بالغير معرفة بأصول لغتنا، وبالتالي منطقا معينا. هدف هذا المؤلف، بالتحديد، هو التشبت بطريقة لممارسة الخطاب أهملتها الفلسفة تماما. في الواقع، منذ منطق بول روايال و"نقد العقل الخالص" إلى ظهور المنطق المعاصر، مع فريجه، وحده تحليل القضايا المُعْرِبَة عن حقيقة أو أسلوب صِحّةٍ تقترب موضوعيته من اليقين الرياضي، هو من اليوم فصاعدا المقبول، أما القضايا الاحتمالية، والمرجّحة، والصادرة عن الرأي أو المسكوكات (أو الصور النمطية stéréotypes) فمستثناة هي من الفحص المنطقي، بقدر ما لا تستطيع أن تقدم أي قيمة أو ميزة علمية. ومع ذلك، يجب الاتفاق على أن معظم العبارات التي نعبِّر عنها في علاقتنا بالغير هي أكثر بعدا عن الصرامة العلمية أو الفلسفية.

في الغالب، الناس مكرهون في المطارحة أو في أسوأ منازعة على تقديم شبه الحجة أو ظل بينة ما. في الواقع، الكل مدفوع بالرغبة في تأكيد "أفكاره" أو آرائه دونما كثير اهتمام بالتفكير والصرامة. وحدهما من يجتلبان قوة الإقناع وإظهار الشعور بالتفوق على المخاطب. في هذا الصدد، ليس يذكي شوبنهاور أي وهم في ما يتعلّق بغرور الناس. لو كانوا جميعهم يستطيعون النزاهة الفكرية بالانشغال أوّلاً بالحقيقة، فلن يكون ثمة مبرر لتأليف كتابه. لكن الحاجة الدائمة إلى أن نكون على صواب بأقل ثمن، أي دونما كثير تدقيق ودونما بحث عن البينات المحسوسة، ليس شيئا آخر، حسب شوبنهاور، غير التعبير عن "فساد النوع الإنساني". من الساذج، إذن، الاعتقاد أن الرغبة في الحقيقة سبيلها أن تظل مستمرة في الناس باقية، وأنهم فقط مضايقون بمنطق قاصر أو معرفة ناقصة بقوانين المنطق. إنّ ما يهيمن في الحوار هو من طبيعة أخرى: إرادة إثبات الذات، وتغليب ما يسميه المؤلف "الكبرياء الفطرية" على حساب رؤية يقينية وموضوعية نسبيا للأشياء. إنّ ممارسة الخطاب تتم في شروط غريبة تماما عن كل انشغال نظري وفلسفي، ومعظم الأبطال لا يترددون في اللجوء إلى كل أشكال عدم النزاهة الفكرية وفاسد الطوية. بحضور متحاورين من هذا النوع، أولئك أنفسهم الذين نواجههم يوميا، ليس يكون حال المنطق معهم هزءا فقط، لكنه محكوم عليه بالفشل أيضاً. بالتالي، يظهر مطلب الحقيقة كأقل هموم معظم الناس شأنا، خاصةً السياسيين كخطباء يجهلون اليوم حتى اسم السفسطة. موقف شوبنهاور تجاه هذه الوضعية المفروضة، والتي نحن في الغالب مساهمون فيها، فريد: إنه يسير بعكس كلّ ما علّمَه التقليد السقراطي. لا يتعلق الأمر هذه المرة بإيجاد الحكم الصحيح عبر اللوغوس، وبالتملص تدريجيا من باثوس الخطاب. بالمقابل، يوصي

فيلسوفنا التوصية الوقحة بالإقامة في مواقف الغير، وبتبني طريقة استدلاله أحيانا لأجل استخدام ضعفه. علاقة القوى هذه غريبة عن الجدل، هذا الفنِ الحواري المدهش من طرف أفلاطون، ولكنها تمثل في الواقع جدلا مرائيا (مشاغبيا)، أي فنا للمطارحة نتيجته الغلبة أو قتل هزيمة الآخر. يُحَدّ هذا الفن بأنه تطبيقي خالص، بشكل يجعله خاليا من كل غاية نظرية أو تأملية. وما دام الغير، بكثرة الاستدلالات المضللة والإثباتات الأكثر أو الأقل تحكّميَّة، يربكنا، ويردنا إلى الدفاع، فإن الحل الوحيد هو التأقلم مع لعبه اللغوي، ليس لأجل اكتشاف حقيقة ما، بل لإيجاد حجة تجرِّد الخصم من سلاحه. وبالنظر إلى ضرورة أن تكون على صواب بطريقة ما، ورفض ترك المحاور يسيطر عليك بخطاب مموّه، يجب اللجوء إلى استراتيجيات مخصصة ومُعدَّة لإنقاذنا من الزلل. تتطلب هذه الوضعية إذن تقنية، حيلاً ومهاراتٍ خاصةً لأجل التخلص من الفخاخ القولية التي ينصبها لنا الغير، أحيانا، دونما خبيث نيّة. إنّه لمن المفيد، إذن، تشكيل سلسلة من وضعيات المطارحة وتبادلات الحجج، نستطيع من خلالها تحديد ما يسميه شوبنهاور الحيل. وهي تشترك في هذا مع الإستراتيجية العسكرية التي هدفها الوحيد المتبع هو غلبة الآخر، بتجريده من السلاح التجريد الأتم. ليست الحيلة قاعدة منطقية، ولا تقنية براجماتية خالصة لمكان التخلص من اللامناسب، ولكنها طريقة للمسك بخطاب الغير متلبسا لأجل ترذيله. لقد أخذ المؤلّف، بدون شك، عديد الأمثلة من أرسطو، ، وشيشرون وكانتليان، هؤلاء المنظرين الأوائل لسلطة القول.

تشكل الحيل الثمانية والثلاثون المعروضة في هذا الكتاب موضعا، بالمعنى القديم، أي مجموعة من المواضع الخاصة، والمواضع المشتركة، يشير كل منها إلى حالة خاصة من أسلوب صراعٍ هو المطارحة. كان

من الممكن، بالتأكيد، أن تكون اللائحة جدّ طويلة. ويمكن للقارئ دون شك، فضلاً عن الحالات الواقعية التي يتورط فيها، تكملتها بالاستناد إلى نصوص الخطابة أو السفسطة القديمة، لكن أيضا بالاستناد إلى بعض كتّاب القرن السابع عشر، مثل بالتازار جراسيان (كتاب "إنسان المحكمة"، خاصة). يبدو أنّ تأثير هذا الكاتب على شوبنهاور في هذا المؤلف كان قطعيا، إذ يترجم شوبنهاور، فضلا عن ذلك، إلى الألمانية مؤلفه الكبير le criticon. إنّ التشاؤم الميتافيزيقي لأحدهما مشحون بنظرة قاسية لليسوعي الإسباني. يتعلق الأمر عند كل منهما بإيجاد الحدّةِ الأكبر للكلمة، اللفظِ اليقين الذي يمكن في أيّة لحظةٍ أن يُحوِّل إلى صالحنا وضعية أصبحت مزعجة. إنّما الكلماتُ والحجَجُ خناجرُ قاتلٌ نَصْلُهَا، على الأقل من خلال السخرية أو بالكشف عن حماقةٍ مبالغٍ في أمرها. هذه المبارزات الكلامية، في نظر شوبنهاور، عارية من كلّ أمانة ومن كل نبل، مادامت ستصل إلى درجة أن تحثنا على اللجوء إلى إهانة المحاور لمّا يوشك أن يفرض حججه. إنه لصحيح أن رأي الفيلسوف هو أيضا بعيد قدر الإمكان عن كل إنسانوية؛ إذْ لسان حاله أنّ الحقيقة الوحيدة المثلى هي انتصارنا الخاص، حتى لو كان يعرف أكثر من غيره أن السيد الحقيقي لِلُّعبة هو، في النهاية، اللغة وإمكاناتها اللاّمتناهية.

ريمون ديدي

فن أن تكون دائما على صواب

أو

الجدل المرائي

إنّ الجدل[1] المرائي la dialectique éristique هو فن للمماحكة، سبيله أن يجعلنا دائما على صواب، أي بما هو مشروع وغير مشروع per fas et nefas (أي بجميع الوسائل المتاحة)[2]. في الواقع، يمكن أن

1*- يستعمل "المنطق" و"الجدل" في الغالب كمترادفين عند القدامى، وعند المعاصرين أيضا.

2* سيكون مصطلح مرائي (مشاغبي) كلمة صعبة جدًّا للدلالة على نفس الشيء. ضمّ أرسطو (حسب ديوجين اللايرسي V ص 28) الخطابة والجدل اللذين يهدفان إلى الإقناع، τό πιςαυόυ ثم الأنالوطيقا (التحليل) والفلسفة وغايتهما الحقيقية. الجدل هو فن الخطاب الذي بواسطته ندحض شيئا ونرفضه بأدلة، وهذا من خلال أسئلة وأجوبة المتناقشين

Διαλεκτική δέ έστι τέχυη λόγωυ, δι'ής άυασκευάζομέυ τι ή κατασκευάζομευ έξ έρωτήσεως καί άποκρίσεως τωυ προσδιαλεγομένων. ديوجين اللايرسي، III، 4، (حياة أفلاطون). ميز أرسطو بالتأكيد: 1) المنطق أو الأنالوطيقا كنظرية أو منهج للوصول إلى استنتاجات صحيحة تسمى نتائج ضرورية 2) الجدل أو قل منهج الوصول إلى استنتاجات معتبرة صحيحة ومتبناة على أنها صحيحة - احتمالية έυδοξα، probabilia (الطوبيقا 1 الفصل 1 و12)، دون أن يكون قد بُرْهِنَ على أنها كاذبة، ولا على أنها صادقة (في ذاتها ولذاتها)، لأن هذا ليس هو المهم، وإلاّ فأي شيء هو فن أن نكون على صواب، إن لم نكن في أعماقنا على صواب أو لا؟ إذن، إنّه فن الوصول إلى ظاهر الحقيقة دون الاهتمام بموضوع المطارحة. لهذا، كما قيل في البداية، ميز أرسطو النتائج المنطقية، والجدلية، كما تمت الإشارة إليه للتّو، ثم 3) الاستنتاجات المرائية (المشاغبية) التي تكون فيها الصورة النهائية صحيحة، لكن الدعاوى نفسها، المادة، ليست صادقة، غير أنها تبدو كذلك. وأخيرا 4) الاستنتاجات السفسطائية (السفسطة) التي تكون فيها الصورة النهائية كاذبة، بيد أنها تظهر صحيحة. هذه الأشكال الثلاثة هي، في الواقع، جزء من الجدل المرائي مادامت تسعى جميعها ليس إلى الحقيقة الموضوعية، بل إلى الحقيقة الظاهرة، دون الانهمام بها، وبالتالي إلى أن نكون دائما على صواب.

لم ينشر كتاب الاستنتاجات السفسطائية إلا في ما بعد وبشكل منفصل. لقد كان آخر كتاب في الجدل.

نكون - موضوعيا - على صواب في ما يتعلق بالمجادلة نفسها، ولكننا مخطئون كليا في نظر الأشخاص الحاضرين، وأحيانا كذلك حتى بالنسبة لأنفسنا. في الحقيقة، لمّا يدحض الخصم حجتي، وبما أنّ هذا يعني دحض إثباتي نفسه، الذي قد يكون مع ذلك مدعّماً بحجج أخرى، في هذه الحالة، بالطبع، العلاقة تنعكس عند خصمي: إنّه على حق مع أنه مخطئ موضوعيا. ومن ثَمّ، فالحقيقة الموضوعية لقضية ما وصحّة هذه الأخيرة بالنسبة إلى إقرار المعارضين والمستمعين بها، هما شيئان متمايزان كثيراً (هذه الأخيرة يرتبط الجدل).

ما مصدر هذا؟ لا شكّ أنّ مصدره الدونية الطبيعية للنوع البشري. لو لم يكن الأمر كذلك، لو كنّا نزهاء أكثر، فلن نبحث، في أيّ مجادلة، إلاّ عن الحقيقة، دون الاهتمام بمعرفة إنْ كانت مطابقة للرأي الذي دافعنا عنه بداية أو لرأي الخصم، الأمر الذي لن تكون له أهمية أو قل سيكون ثانويا. ولكن ذاك الاهتمام هو، منذ الآن فصاعدا، الأساسي؛ فالكبرياء الفطرية سريعة الانفعال لاسيّما في ما يخص الملكات العقلية، إذ ليست تقبل أن يظهر إثباتنا كاذبا، وليست تقبل أن يكون إثبات الخصم صحيحا. بالتالي، كل واحد يلزمه ببساطة أن يجدَّ كي لا يعبِّر إلاّ عن أحكام صحيحةٍ، وهذا ينبغي أنْ يحثّ على التفكير أوّلاً ثم على الكلام ثانيا. لكنّ الكبرياء الفطري (الطّبعي) عند معظم الناس مُصاحَب دائما بحاجة إلى الثرثرة وعدم النزاهة الفطري. فهم يتكلمون قبل أن يفكروا، وحتّى لو هم تنبّهوا بعد فوات الأوان إلى أنّ إثباهم كاذب وأهم كانوا على ضلال، عمدوا إلى حفظ ماء الوجه عبر إظهار العكس. إنّ سعيهم إلى تحصيل الحقيقة، التي يجب، بدون شك، أن تكون الدّافعَ الوحيد الذي يحركهم خلال إثباهم دعوى ما يُفترض أنها صادقة، ينتفي كليّا أمام مصالح كبريائهم: فالصادق وجب أن يظهر كاذبا والكاذب صادقا.

مع ذلك، فعدم النـــزاهة نفسه، والإلحاح على الدفاع عن دعوى تبدو لنا أنفسنا كاذبة بالفعل، يمكن أن يكون معذورا: إنّا غالبـــا مـــا نكون في البداية مقتنعين الاقتناع كلّه بحقيقة إثباتنا، ولكن هـــاهي ذي حجة خصمنا يَلُوحُ أنها ستدحضه؛ وإذا نحن تخلّينا في الحال عن الدفاع عنه، غالبا ما نكتشف، فيما بعد، أننا كنّا على صواب؛ وأنّ دليلنا كان كاذبا، لكن إثباتنا كان بالإمكان أن ينهض على دليل أقوى. إنّ الحجة المنقذة لم تخطر ببالنا فورا. وعليه، ينقدح فينا المبدأ الذي يقول بوجوب مهاجمة حجة الخصم حتى ولو بدت صحيحة وحاسمـــة، متيقـــنين أنّ صحتها ليست إلاّ ظاهرية، وأنه سنجد خلال المطارحة حجةً قـــادرة على دحضها، أو على أنْ تؤكد حقيقتنا بطريقة أو بأخرى. بالتـــالي، نحن شبه مجبرين على أن نكون غير نـــزهاء خلال المطارحة، أو علـــى الأقل أنْ نحاول أن نكون كذلك. بهذه الطريقة، يتعاضد ضعف ذكائنا وفساد إرادتنا تعاضداً تبادلياً. ينتج عن هذا، على العمـــوم، أنّ الـــذي يناقش لا يتصارع من أجل الحقيقة وإنما لأجل دعواه، كما لأجل الدين والبلد pro ara et focis، ويتصرف بحسب ما هو مشروع وما لـــيس بمشروع، ما دام، كما بيّناه، ليس يمكنه أن يقوم بغير ذلك.

على العموم، سيسعى كل واحد إلى الدفاع عن قضيته حتى لـــو بدت له حينئذ كاذبة أو مشكوكا فيها[1]. أما في ما يتعلق بسبل تحقيـــق

1* يوصي ميكيافيلي الأمير بالاستفادة من كل لحظـــات ضـــعف جـــاره لمهاجمته، وإلاّ فإن هذا الأخير يمكن أن يستفيد من اللحظة التي يكـــون فيها الأمير في وضعية ضعف. إذا سادت النـــزاهة، والـــبراءة، فـــالأمر مختلف. لكن، بما أنه لا يمكن التعويل على هاتين الفضيلتين، ما وجـــب تطبيقهما مادام لا يثاب على فعلهما. الأمر نفســـه في المطارحـــة: إذا اعترفت بصواب خصمي بمجرد أن يلوح أنه على حق، فإنّه احتمـــال ضئيل أن يسلك بالطريقة نفسها نحوي. سيتعامل بالأحرى بما هو غـــير

ذلك، فتتوقف في جزء منها على استعداداته الشخصية للدهاء والدّناءة. هذا ما تعلّمنا إياه التجربة اليومية للمطارحة. لكلٍّ جدله (ديالكتيكه) الطبيعي، كما أن له منطقه الطبيعي. لكن، الأول بعيدٌ البعدَ كلّه عن أنْ يقودنا بكل أمانٍ كالثاني. فليس من السهل على أيّ شخص أن يفكر أو يستنتج بعكس a contrario قوانين المنطق؛ فالأحكام الكاذبة كثيرة، والاستنتاجات الكاذبة قليلة. إذا لم يُظْهِرْ شخصٌ، بسهولة، نقصاً في المنطق الطبيعي، يمكن على العكس أن يُظهرَ نقصا في الجدل الطبيعي. إنها هبة من الطبيعة ليست بالقسمة العادلة (تشبه في هذا ملكة الحكم بما هي قسمة غير عادلة، في حين أنّ العقل هو في الحقيقة قسمة عادلة). إنه غالبا ما يحدث، ولو أننا على صواب، أنْ نُفْحَمَ ارتباكاً أو نُدْحَضَ بواسطة حجة مموّهة، أو العكس. وذاك الذي يخرج منتصرا من المجادلة، غالبا ما يدين بنصره ليس فقط لصحة حكمه لَمّا هو كان ينافح عن دعواه، وإنّما أيضا للمهارة والبراعة اللتين دافع هما عن الدعوى. هنا، وكما الأمر في جميع الحالات، نعتبر الفطري (الطبعي) المرشد الأفضل. مع ذلك، بالتمرس والتفكير في أشكال المهارات القادرة على رد الخصم أو تلك الموظفة من طرفه لرد الآخر، يمكن أن تكون لنا حظوظ كبيرة لكي نصبح معلمين في هذا الفن. وعليه، رغم أن المنطق ما كانت له منفعة عملية حقيقية، فإن للجدل منفعة. ويبدو لي أيضا، أن أرسطو قد اعتبر منطقه المسمّى بالأنالوطيقا (التحليلات)، أساسا، كتأسيس

مشروع per nefas، ويجب إذن أن أقوم بالأمر نفسه. من السهل القول أنه يجب البحث عن الحقيقة فحسب دون إرادة تبجيل دعوانا، لكن بما أنه لا يمكن افتراض أن الخصم سيقوم بالأمر نفسه، وجب الانصراف عن ذلك. إضافة، إذا كنت مستعدا للتنازل مع ذلك عن دعوى فحصتها بعمق قبلا، بمجرد أن يظهر أن الآخر على صواب، ممكن أن يحدث بسهولة، أن أتنازل عن الحقيقة لأتبنى الخطأ متأثرا بانطباع عابر.

وإعداد للجدل، ومعتبراً هذا الأخير العنصر الأهم. فالمنطق يهتم أساسا بصورة الدعاوى المقدمة، والجدل بمضمونها أو مادتها. لهذا، تحديداً، وجب أنْ يسبق فحصُ الصورةِ، أي العام، فحصَ المادةِ، أي الخاص.

لم يحدد أرسطو هدف الجدل ببالغ الدقة، كما فعلت أنا. هو يشير بالتأكيد إلى المطارحة كهدف أساسي، ولكن أيضا إلى البحث عن الحقيقة، وفي ما بعد، استطرد قائلا إننا نبحث فلسفيا الدّعاوى حسب الحقيقة، وجدليا حسب المظهر أو حسب إقرار ورأي(δόξα) الآخرين (Topiques, I, chap.12). لا بُدَّ أنه كان على وعيٍ بالتمايز الواضح بين الحقيقة الموضوعية لدعوى ما، وبين طريقة فرضها أو جعلها مقبولة. ومع ذلك، فهو لا يميز بينهما بوضوح تام، لأجل ألاّ يعزو للجدل إلاّ هذه الغاية الأخيرة[1].

1* ومن جهة أخرى، في كتابه التبكيتات السفسطائية les réfutations sophistiques، أجهد نفسه لتمييز الجدل (الديالكتيك) عن السفسطة وعن المراء (المشاغبة). سيكون الفرق هو أن الاستنتاجات الجدلية صادقة على مستوى الشكل والمضمون، في حين أن الاستنتاجات المرائية (المشاغبية) أو السفسطائية كاذبة (هاتان الأخيرتان تختلفان فقط من حيث غايتهما: في ما يتعلق بالمراء (المشاغبة)، الهدف هو أن نكون على صواب، وفي ما يتعلق بالسفسطة، فهو الاعتماد الذي يمكن استخلاصه منها، والنقود التي يمكن ربحها بهذه الطريقة). معرفة ما إذا كانت دعاوى ما صادقة من حيث مضمونُها، هي دائما جدّ معرضة للشك في أن نتمكن من أن نستخرج منها معيارا فارقا، وذاك الذي يشارك في المناقشة هو الأقل جدارة لامتلاك يقين تام حول هذا الموضوع، حتى نتيجة المطارحة ليست تنبئنا الكثير حول هذه النقطة. يجب علينا إذن أن نجمع تحت مصطلح الجدل الأرسطالي: السفسطة، والمرائية (المشاغبية)، والممتحنية la péirastique (أو فنّ امتحان الأفكار)، وتعريفه كفن أن نكون دائما على صواب في المطارحة. لهذا، أحسن وسيلة بالتأكيد هي، أولا، أن نكون فعلا على صواب، لكن بالنظر إلى عقلية الناسِ، هذا غير كاف في ذاته، وبالنظر إلى ضعف فاهمتهم entendement فإن هذا ليس

من هذا المنطلق، فالقواعد التي يحددها لهذه الغاية غالبا ما تكون مختلطة بالقواعد المحددة للغاية الأخرى. وعليه، يبدو لي أنه لم يؤدِّ مهمته بشكل صحيح[1].

ولتأسيس الجدل تأسيسا صارما، وجب اعتباره على الخصوص كفن أن نكون دائما على صواب، دونما انشغال بالحقيقة الموضوعية (التي هي مهمة المنطق)، الأمر الذي سيكون طبعاً وبالأحرى أسهل متى كنا على صواب بالنسبة لموضوع المجادلة نفسه. لكن الجدل، بما هو كذلك، وظيفته فقط أن يُعَلِّمَ كيف نقدر على التصدي للهجمات

ضروريا قطعا. يتوجب، إذن، أن نضيف إليها حيلا أخرى التي، وبما أنها مستقلة عن الحقيقة الموضوعية؛ يمكنها أيضا أن تستعمل عندما نكون، موضوعيا، على ضلال. بالنسبة لمعرفة إن كان الأمر كذلك، فليس هناك أبدا يقين حول هذا الموضوع.

أعتقد إذن، أن الجدل ينبغي أن يتميز بوضوح أكبر عن المنطق أكثر مما فعل أرسطو: يجب أن نترك للمنطق الحقيقة الموضوعية بقدر ما هي صورية، وحصر الجدل في فن أن نكون دائما على صواب؛ لكن لا يجب، بخلاف أرسطو، أن نفصل كثيرا الجدل عن السفسطة وعن المراء (المشاغبة)، ما دامت هذه التفرقة تتوقف على الحقيقة الموضوعية المادية التي لا نقدر أن نعرف عنها أيَّ شيء محدَّدٍ مقدماً، ونحن مجبرون أن نقول مع بونس بيلات: Ponce Pilate ما هي الحقيقة؟ - لأن الحقيقة في قعر البئر(ἐυ βυθῷ ἡ ἀλήφεια) Veritas est in puteo، مثل لديمقريطس (ديوجين اللايرسي، IX، 72). من الهيّن القول أن المطارحة لا يجب أن تهدف إلى أي شيء غير إظهار الحقيقة، لكن المشكل؛ هو أننا لا نعرف بعد أين توجد، وندع أنفسنا ننخدع بحجج الخصم وحججنا الخاصة. فضلا عن ذلك، قبل فهم الأمر، لنتفق على المفاهيم re intellecta, ira verbis simas faciles: بما أننا اعتدنا، إجمالا، اعتبار كلمة "جدل" مرادف كلمة "منطق"، سنسمّي مبحثنا الجدل المرائي (المشاغبي) dialectica eristica.

1* يجب دائما الفصل بعناية بين موضوع مبحث ما وموضوع المباحث الأخرى.

مهما كانت طبيعتها، وخاصة للهجمات غير النزيهة، وأيضا كيف يمكننا بدورنا مهاجمة ما يثبته الآخر دون أن نتناقض مع أنفسنا، وخاصة دون أن نُدْحَضَ. في هذا المقام، يجب الفصل بوضوح بين اكتشاف الحقيقة الموضوعية (الصدق الموضوعي) وبين فن تمرير الدعاوى التي نقدمها على أنها صادقة. إنّ الأول هو عملية πραγματεία مختلفة تماما، إنّه صنيعة القدرة على الحكم، والتفكير، والتجربة، وهذا ليس يشكل موضوع فنّ خاص. أما الثاني، فإنه الجدلُ نفسه. لقد حُدِّد هذا الأخير كمنطق المظهر، وهو أمر غير صحيح، لأنه لن يساعد في مثل هذه الحالة إلا على الدفاع عن دعاوى باطلةٍ. مع ذلك، حتى عندما نكون على صواب، فإنّا بحاجة للجدل لندافع عن وجهة نظرنا، ويجب معرفة الحيل غير النزيهة لمواجهتها. لذا ينبغي أن نرجع كثيراً إليها، نحن أيضاً، إطاحةً للخصم بالأسلحة نفسها. لهذا السبب، على الجدل أن يضع الحقيقة الموضوعية جانبا أو اعتبارها عرضية. ويتحتم، بكل بساطة، الحرصُ على الدفاع عن قضايانا ودحضُ قضايا الطرفِ الآخر. من قواعد هذا الصراع، ألاّ نعير الحقيقة الموضوعية اهتماما، لأنّنا نجهل في معظم الأوقات أين وجودُها[1]. غالبا ما لا نعرف، نحن أنفسنا، إنْ كنّا على صواب أم لا، وغالبا ما نعتقد أننا على حق بينما نحن مخطئون، وكثيرا ما يعتقد الطرفان معاً أنهما على حق لأنّ "الحقيقة في قعر البئر" veritas est in puteo، ἐν βυθῷ ἡ ἀλήθεια (دمقريطس). في بداية المطارحة، كل واحد يعتقد، عموما، أنه من يمتلك الحقيقة، ثم يشرع الطرفان في الشك، ونهاية المجادلة، هي وحدها، التي بإمكانها

---

*1 Veritas est in petuo (ἐν βυθῷ ἡ ἀλήθεια) عبارة لديمقريطس، ديوجين اللايرسي IV، 72. يحدث مرارا أن يتخاصم شخصان، وأنّ كلاً منهما ينصرف إلى حال سبيله مع رأي الآخر. لقد تبادلا.

إظهار الحقيقة وتأكيدها. إذن، ما كان للجدل أن يرتبط بهذا، ومثاله أنّ المدرب على المسايفة ليس يتساءل لمعرفة من كان على حق أثناء الخصام الذي سبّب المبارزة، بل ما يهمه هو الإصابة والتفادي. وهذا ينطبق أيضا على الجدل بما هو مشادّة فكرية. متى أدركنا هذا بطريقة أكثر وضوحاً، أمكن اعتباره مبحثا مستقلا، لأنه إذا نحن وضعنا كهدفٍ الحقيقةَ الموضوعية الخالصة، فإنّا نعود إلى المنطق المحض. وفي المقابل، إذا نحن وضعنا كهدفٍ استعمال دعاوى كاذبة، فإنّا نكون في السفسطة الخالصة. وفي الحالتين، يُفْتَرَض أننا عرفنا قبلا ما هو صادق أو كاذب موضوعيا. والحال هذا، من النّادر معرفة الأمر مقدما المعرفة الوثقى. إنّ التصور الصحيح للجدل هو إذن الذي حُدِّدَ من قبل: مشادة فكرية لأجل أن نكون دائما على صواب في المطارحة. بالتالي، مصطلح مراء (مشاغبي) éristique سيكون مع ذلك جد صحيح، والأكثر صحة منه، بدون شك، سيكون هو الجدل المرائي (المشاغبي) Dialectica eristica. إنه جدّ نافع، وإنه بدون حقٍّ تم إهماله في الأزمنة المعاصرة.

لا يمكن للجدل، إذن، أن يكون سوى خلاصةٍ ووصفٍ لهذه الأشكالِ من المهارةِ هبةِ الطبيعة، والتي يستعملها معظم الناس في المطارحة، عندما يدركون أنّ الحقيقة ليست إلى جانبهم، ليكونوا رغم هذا على صواب. سيكون من غير اللائق، في مجال الجدل العلمي، أن نأخذ بعين الاعتبار الحقيقة الموضوعية وإظهارها، ما دام الأمر ليس كذلك في هذا الجدل الأصلي والطبيعي الذي هدفه الوحيد هو أن نكون على صواب. وبالتالي، فمهمة الجدل العلمي، كما نتصوره، هي إعداد وتحليل الحيل العديمة النزاهة [حيل المكر والخديعة] في المطارحة بهدف – في المجادلات الحقيقية – المقدرة على معرفتها حالا وإبطالها.

لأجل هذا السبب، ما وجب على الجدل أن يقبل كغاية، باعتبار تعريفه، سوى فن أن نكون دائما على صواب، وليس الحقيقة الموضوعية.

ولو أنني أنجزت أبحاثا متقدمة، فأنا لا أعلم إنْ كان أحدٌ قد قام بشيء أيّا كان في هذا المنحى[1]: يتعلق الأمر بحقل لا يزال بكراً. وصولا إلى أهدافنا، وجب النّهل من التجربة، وملاحظة كيف استخدمت هذه الحيلة أو تلك من قبل هذا الطرف أو ذاك، خلال المجادلات التي تثيرها غالبا علاقات الناس في ما بينهم، ثم ردّ أشكال المهارة هذه، التي تعاود الظهور تحت أشكال مختلفة، إلى مبدأ عام، وكذلك إنشاء بعض الحيل العامة التي من المحتمل أن تكون نافعة فيما بعد، سواء في ذلك لاستعماله الخاص أو لإبطالها عندما يستخدمها الطرف الآخر.

يمكن اعتبار التالي كمحاولة أولية.

1* حسب ديوجين اللايرسي، من بين العديد من الكتابات الخطابية لتيوفراسطس theophroste، التي اختفت جميعها، كان يوجد منها واحد معنون بـ: جدل حول نظرية المطارحة Ἀγωυιστικόυ της περί τούς έριστικούς λόγους ζεωρίας. هنا حقا مقصدنا.

أساس الجدل

قبل كل شيء، يجب الانصراف إلى الأساسي في كل مطارحة، أي ما يحدث في الواقع.

الخصم عرض دعوى (أو نحن أنفسنا، لا يهم)، ولدحضها، هنالك أسلوبان modes وطريقتانméthodes ممكنان:

1- الأسلوبان: les modes

أ- الحجة على الموضوع (الشيء) ad rem.

ب- الحجة على الذات[1] أو سابق التنازلات ad hominem ou ex concessis.

بمعنى أن نبين إما أنّ هذه الدعوى غير متوافقة مع طبيعة الأشياء، أي الحقيقة الموضوعية المطلقة، وإما أنها تتناقض مع إثباتات أخرى أو مع تنازلات الخصم، أي الحقيقة الذاتية النسبية[2]. في الحالة الأخيرة،

---

1 يقترح مراد وهبة في معجمه الفلسفي ترجمتها بـ: حجة شخصية، فيخلط بينها وبين ad personam. ونحن نقترح ترجمتها بالحجة على الذات لاعتبارين: أولهما أنْ ترجمنا hominem بالذات لأن الذات حمّالة أفكار، وإنّ مقصودنا من إيراد الحجة دحض الأفكار أو ما يمثّلها، وليس بالإنسان لأنه يشمل الفكر والجسد. وثانيهما أنْ ترجمنا "ad" بحرف الجر "على" للدلالة على المناقضة والمخالفة. في ما يخص دلالة حرف الجر "على"، انظر كتاب: منطق الكلام، حمو النقاري، الدار العربية للعلوم، 2010، ص 50.

2 للتفرقة بين ad rem و ad hominem نأخذ المثال التالي: شخص يدافع عن فكرة أن البحر أزرق. لدحضها بـ ad rem (الحجة على الموضوع)،

يتعلق الأمر فقط بحجة نسبية لا صلة لها بالحقيقة الموضوعية.

نشرح له أن ماء البحر لا لون له، وأن زرقته ناتجة عن انعكاس لون الغلاف الجوي الذي يمتص ألوان الطيف السبعة ما عدا اللون الأزرق. فالدحض هاهنا يتوجه إلى موضوع المجادلة أو الشيء المتجادل عليه. ولدحضها بـ ad hominem (الحجة على الذات)، نسأله بديّة: هل وضعت يوما لونا ما في بعض ماء البحر؟ يجيب: نعم، اللّونَ الأصفر، ثم نستفسره ثنية: ما كان لونه؟ فيرد: الأصفر. نشرع في بيان أنّ الألوان منقسمة هي إلى ألوان أساسية وألوان ثانوية، وأنه بالأساسية نحصل على الثانوية بطريق المزج والخلط بين لونين أو أكثر، ثم نسأله: ما اللون الذي نحصل عليه بالخلط بين الأزرق والأصفر؟ فيجيب هو اللون الأخضر. ها قد حصلنا على تنازلات الخصم وإقراراته، وبقي لنا أن نعكسها ضده هكذا: أنتَ قلت أن مزج اللون الأزرق بالأصفر ينتج عنه اللون الأخضر، وبما أنك أضفت اللون الأصفر إلى ماء البحر وهو قد فرضته أزرق اللون، فقد لزم ضرورة أن يصير لونه أخضر، وقد اعترفت أن لونه كان أصفر، فهو إذن لم يكن أزرق. قد تحصلّ إذن أن ماء البحر ليس بأزرق.
أما ماير فيفرق بينهما هكذا: «يمكن دوما أن نخصص زاوية للهجوم ومباشرة المشكل بالتركيز على الأفراد وعلاقتهم - إنه منهج الحجة على الذات ad hominem - كما يمكن، إذا أردنا، أن نركز على السؤال نفسه، ما هو سؤال في ذاته، ما هو موضوع للسؤال - إنه منهج الحجة على الموضوع ad rem... باختصار، وبشكل عام، يمكن أن تجري المساءلة بطريقين: أولهما يتمثل في أن تعمل على السؤال نفسه؛ وثانيهما، على العلاقة بين المخاطب ومحاوره. من هاهنا المظهر الأساسي للتفرقة الشهيرة بين الحجة على الذات ad hominem والحجة على الموضوع ad rem».
انظر: Michel Meyer, qu'est-ce que l'argumentation, librairie J. Vrin, 2008, p. 58.
إنّ الحجج الصناعية المحايثة لفن الخطابة أو قل مبادئها ثلاثة حسب أرسطو هي: الباث (طباع الخطيب ومزاجه)، المتلقي (الاستعدادات التي يوضع عليها المستمع)، اللوغوس (الخطاب ذاته) (انظر عالم الفكر، العدد 2، المجلد 40، أكتوبر- ديسمبر 2011، ص 28 - 29، وكذلك كتاب الخطابة لأرسطو، ترجمة عبد القادر قنيني، ص 15)، أو هي بتعبيرنا: المخاطِب ethos، المخاطَب pathos، الخِطَاب logos. ويَعتَبرُ ماير في كتابه "ما هو الحجاج؟" أنّ الحجة على الموضوع هي الخطَاب، أما الحجة على الذات فيمثلها المخاطِب.

2- الطريقتان: les méthodes

أ- دحض مباشر.

ب- دحض غير مباشر.

يهاجم الدحض المباشر الدعوى من أسسها، والدحض غير المباشر من نتائجها. يبين الدحض المباشر أنّ الدعوى غير صادقة، وغير المباشر يبين أنها لا يمكن أن تكون صادقة.

- في حال الدحض المباشر، يمكننا القيام بأمرين: إما أنْ نُبيِّن أنّ أسس إثبات الخصم كاذبة (نفي الكبرى، نفي الصغرى، nego majorem، nego minorem)، وإمّا أنْ نُسلّم بالأسس، ولكن نبين أنّ الإثبات لا يمكن أن ينتج عنها nego consequentiam. نحن نهاجم إذن النتيجة، صورة النتيجة.
- في حال الدحض غير المباشر، إما أن نستعمل العكس la conversion (ἀπαγωγή)، وإما الحجة الفرعية l'instance:
  - العكس: نسلم بصدق قضية الخصم، ونبيّن حينئذ ما ينتج عنها لمّا، في علاقة مع قضية صادقة، نستعملها كمقدمة لنتيجة، والتي تظهر عندئذ نتيجة كاذبة مادامت تتناقض إما مع طبيعة الأشياء - إذا هي ناقضت حقيقة أكيدة تماما، فإنّا قد أربكنا الخصم ad absurdum (البرهان بالخلف[1]) - وإما مع الإثباتات الأخرى للخصم نفسه، وإذن فهي كاذبة

---

1 هو إثبات قضية ما بإثبات أنّ نقيضها يقود إلى نتيجة باطلة. مثلا، شخص ينكر أن يكون أرسطو منطقيا، ونحن نريد إثبات نقيض هذه القضية، أي أنّ أرسطو منطقي، فنقول: أرسطو هو مؤلف الأورجانون، فإن لم يكن أرسطو منطقيا، لم يكن مؤلف الأورجانون (تنيجة)، وهذا خلف. لكن أرسطو هو مؤلف الأورجانون، إذن أرسطو منطقي.

ad hominen أو ad rem (سقراط في هيبياس الكبير L'Hippias majeur ونصوص أخرى). وبالتالي، الدعوى أيضا كاذبة، لأنّه من مقدمات صادقة لا يمكن أن تستنبط إلا قضايا صحيحة، ولو أنّ تلك المستنبطة من مقدمات كاذبة ليست دائما كاذبة.

- الحجة الفرعية examplem in contrarium، ἔυστασις (المثال المضاد): دحض القضية الكلية من خلال العرض المباشر لحالات معزولة متضمّنة في أقوال الخصم، والتي لا يمكن أن تنطبق عليها القضية الكلية، حتّى أنّ هذه ليس يمكن أن تكون إلاّ كاذبة.

هذا هو البناء العام، وهيكل كل مطارحة: نتوفر إذن على مبحث هيكلة ostéologie، لأنّ هذا ما تؤول إليه، في الواقع، كل مطارحة: لكن كل هذا يمكن أن يحدث واقعيا أو ظاهريا فقط، ومع أسس حقيقية أو لاحقيقية. وكما في هذا الموضوع، ليس من السهل امتلاك بعض اليقين، فالمجادلات طويلة ومستعرة. أثناء البرهنة، لا نستطيع كذلك أن نميز الصادق من الظاهري، مادام هذا التمييز ليس أبداً مُحَدَّداً من قبلُ عند الخصوم أنفسهم. لهذا أشير إلى الحيل دون الأخذ بعين الاعتبار واقع أن نكون مصيبين موضوعيا أو لا، لأنه لا يمكن معرفة ذلك بإيقان، وأنّ هذا لا يمكن أن يتقرَّرَ إلاّ بفضل المطارحة. فضلا عن ذلك، يجب في كل مطارحة أو مُحاجّة (تدليل طبيعي argumentation) الاتفاق حول أمرٍ ما، مبدإ يتم من خلاله الفصل في المشكل المعروض: فليس يمكن مجادلة شخص ينكر المبادئ Contra negantem principea non est disputandum.

الحيل

الحيلة1: الاتساع[1]

الاتّساع l'extension. تمديدُ إثبات الخصم إلى ما وراء حـــدوده الطبيعية، وتأويلُه بأبلغ طريقة عامة ممكنة، وفهمُه بأوسع معنى ممكـــن، والمبالغة فيه. في المقابل، يلزم تقليص إثباتنا إلى المعنى الأكثـــر حصـــرا، وإلى أضيق الحدود الممكنة، لأنه كلّما صار إثبات ما عامّا، كان أكثـــر عرضة للهجمات. شأن المدافعة هاهنا أن تفرض بوضـــوح موضـــوع النقاش le punctus أو وضع المطارحة status controversiae.

مثال1: قلتُ: "البريطانيون أول شعب في فن الدراما"، والخصـــم أراد أن يجرب حجة فرعية instancia رادّاً: "معروف أنّ لا أهمية لهـــم في الموسيقى، وإذن في الأوبرا". عارضته مذكّرا: "أنّ الموسيقى ليســـت جزءا من فن الدراما، فهذا المصطلح لا يعني إلا التراجيديا والكوميديا". هو يعرف هذا جيدًا ويحاول فقط أن يعمّم إثباتي حتى يشـــمل جميـــع أشكال العروض المسرحية، وإذن الأوبرا، وإذن الموسيقى، وهذا لأجل أن يكون على ثقة من انتصاره.

وبالعكس، لضمان غلبة إثباته الخاص، وجب أنْ يحصره أكثر مما كان متوقعا في البداية عندما يكون التعبير المستخدم مساعدا على ذلك.

مثال 2: "أ" يقول: "منح سلام سنة 1814 الاســـتقلال لجميـــع المدن التحالفية". "**ب**" يجيب بالحجة الفرعية المضـــادة l'instantia in contrarium قائلا إنّ هذا السلام أفقد دانـــزيج Danzig الاستقلال الذي منحه لها بونابارت.

1 عناوين الحيل من وضع المترجم إلى العربية.

"أ" يتخلّص من هذا بالطريقة التالية: "تحدثتُ عن جميع المدن التحالفية الألمانية، ودانزيج كانت مدينة تحالفية بولونية".

لقد وردت هذه الحيلة عند أرسطو. (الطوبيقا، VIII، الفصل: 11، 12).

مثال 3: ينفي لامارك (فلسفة علم الحيوان أو الفلسفة الحيوانية - الكتاب1، ص 203) كل حساسية عن الأمداخ[1] (ج مديخ) polypes، لأنه لا أعصاب لها. وبما أنه مؤكد أنها تدرك لأنها تستدير نحو الضوء متنقلة اعتباطيا من غصن إلى غصن، فتمسك فريستها؛ فمن المفترض، إذن، أنّ المادة العصبية عندها موزعة بانتظام في الجسم بكامله، كمذوّبة فيه؛ لأنّ لها إدراكاتٍ واضحةً دون أنْ تملك حواسا متمايزة. بما أن هذا يدحض فرضية لامارك، تراه يحاجج جدليا كما يلي: "حينئذ، يجب أن يكون كل جزء من جسم الأمداخ مستعدّا لكل شكلٍ من أشكال الحساسية، وأيضا للحركة، والإرادة، والفكر. آنذاك، سيكون للمديخ في كل نقطة من جسمه جميع أعضاء الحيوان الأكثر كمالا. ويمكنه من كل نقطة الرؤية، والإحساس، والذوق، والسمع... الخ، وكذلك التفكير، والحكم، والاستنتاج. سيكون كل جزيء من جسمه حيوانا كاملا. والمديخ نفسه سيكون أعلى منزلة من الانسان ما دام كل جزء من جزئياته يمتلك كل الملكات التي ليست للإنسان إلا في مجموعه. زيادة على ذلك، لن يكون هنالك سبب يمنع من أن نَمُدّ إلى المونادا (الجوهر الفرد الروحي)، الأكثر نقصا من بين جميع الموجودات، ما أُثبِتَ للمديخ، وفي الأخير إلى النباتات التي هي أيضا جدّ حية، الخ".

---

1 جنس حيوانات بحرية من الجوّفات. المنهل. سهيل ادريس.

باستخدام هذه الحيل الجدلية، يكتشف كاتب ما، في سريرته، أنه واعٍ بضلاله، فيحول إثباته إلى: "جسمه بالكامل حسّاس للضوء، فهو إذن أمرٌ ذو طبيعية عصبية"، بأن نقول له إنّ الجسم كله يفكر.

الحيلة 2: الجناس

استعمال الجناس لأجل مدّ الإثبات أيضا، باستثناء الكلمة نفسها، إلى ما هو غير مهم، أو إلى ما لا علاقة له بموضوع المجادلة، ثم دحضه بطريقة جلية، والتظاهر أيضا بإبطال الإثبات نفسه.

ملاحظة: تُسَمَّى مترادفتين كلمتان تعيِّنان التصور نفسه، ومتجانسين تصوران معيَّنان بكلمةٍ واحدةٍ (اُنظر أرسطو، الطوبيقا، I، الفصل: 13[1]). فالكلمات "قوي"، و"حاد"، و"مرتفع" المستعملة أحيانا للأجسام وأحيانا أخرى للأصوات هي متجانسات[2]. أما "نزيه" و"أمين" فكلمتان مترادفتان.

يمكن اعتبار هذه الحيلة مماثلة لمغالطة الجناس السابق ex homonymea، ومع ذلك مغالطة الجناس الواضحة، الجدُّ كل الجدِّ، ما كان لها أن تخدع أحداً:

---

1 فصل "البحث عن الألفاظ المشتركة"، أرسطو، منطق أرسطو، نقل أبي عثمان الدمشقي، حققه وقدّم له عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - الكويت، دار القلم - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1980، الجزء الثاني، كتاب الطوبيقا، المقالة الأولى، الفصل 15، ص 510 - 518.

2 يقول ابن رشد: "مثال ذلك: الحاد فإنه يُدل به على معنى في السكين ومعنى في الصوت، فإذا أردنا أن نعلم أن ما يدل عليه في أحدهما غير ما يدل عليه في الآخر نظرنا أولا إلى اسم الضد في كل واحد منهما فنجده في الصوت الثقيل وفي السكين الكال، فنعلم أن اسم الحدة فيهما مشترك". ابن رشد، تلخيص منطق أرسطو، دراسة وتحقيق جيرار جهامي، المجلد السادس والسابع، دار الفكر اللبناني، 1992، ص 516.

كل نور يمكن أن ينطفئ Omne lumen potest extingui،

والذكاء نور Intellectus est lumen،

إذن، الذكاء يمكن أن ينطفئ Intellectus potest extingui.

نلاحظ، بسرعة، أنّ هناك أربعة حدود termini: النّـــور lumen مأخوذا بالمعنى الحقيقي، والنّور lumen مأخوذا بالمعنى المجازي. لكن في الحالات المحكمة يمكن أن يحدث تمويه، لاسيما عندما تكون التصورات المعيّنة بالعبارة نفسها متداخلة، فتختلط.

المثال 1: هذه الحالاتُ المُختُلقَة عمداً غيرُ قادرة علـــى التمويـــه. يجب إذن، جمعها من تجربتنا الخاصة. وسيكون من الأفضل إعطاء كل حيلة اسما مختصرا وملائما، بفضله يكون بالمستطاع فوراً رفض استعمال هذه الحيلة أو تلك عند الاقتضاء.

أ- " أنت لست مطّلعا بعد على أسرار الفلسفة الكانطية".

ب- "آه، عندما يتعلق الأمر بالأسرار، فهذا لا يهمّني".

المثال 2: أنعث باللامعقول مبدأ الشرف الذي بحســـبه نُخْـــزَى بسببِ إهانةٍ لحقتنا، باستثناء إذا أجبنا بإهانة أعظم أو سُفِكَ الـــدّمُ، دمُ الخصم أو دَمُنا. تذرَّعْتُ بحجة أنّ الشرف الحقيقي ما أمكنه أن يُمَـــسَّ بفعل ما نتعرض له، لكن فقط بسبب ما نفعل، لأنّ كل شيء يمكن أن يحدث لكافة الناس. يهاجم خصمي مباشرة أساس أقوالي، فيـــبرهن لي بطريقة بليغة إنه إذا اتهمنا خطأ تاجرا بالاحتيال أو بعدم النـــــزاهة أو بالإهمال في أداء مهنته، فهاهنا مساس بشرفه، والذي ما انتُقِدَ إلاّ بسبب ما تعرض له، والذي لا يمكن أنْ يمحوه إلا أنْ يتلقّى هذا المعتدي عقوبة ويعدل عن قوله.

بفضل الجناس، يقيم إذن الشرفَ المدنيّ، الذي يســـمى عـــادة السمعة الحسنة، والتي نلطخها بالوشاية، مقـــامَ مفهـــومِ الشـــرف

الفروسي الذي يسمى كذلك نخوة، والذي نطعن فيه بإهانات. وبما أنه لا يجب التّغاضي عن إهانة لنموذج الشرف الأول، بل معارضتها بدحضها علانية، سيكون من المبرَّرِ بنفس القدر الاعتراض على إهانةٍ للنموذج الثاني من الشرف ومعارضتها بإهانة أعظم وبمبارزة. كان هناك، إذن، خلط بين شيئين مختلفين أساسا بسبب جناس كلمة "شرف"، وتعديل في موضوع المطارحة mutatia controversiae ناتج عن الجناس.

الحيلة 3: تعميم حجج نقيضة

التعامل مع الإثباتِ المقدمِ نسبيَّ التقديمِ، κατά τι، كما لو كان، بشكلٍ عامّ وبسيطٍ simpliciter، άπλως، مطلقاً، أو على الأقل فهمه داخل سياق مختلف تماماً، ثم دحضه في هذا الاتجاه. المثالُ المقدم من طرف أرسطو هو التالي: "الزنجي أسود، لكنه أبيض الأسنان. إنه إذن أسود ولا أسود في الوقت نفسه"[1]. إنه مثالٌ مختلق لن يخدع – حقيقةً– أيّ شخصٍ. لنأخذ بالمقابل مثالا واقعيا.

مثال 1:

في نقاشٍ ما حول الفلسفة، اعترفت أنّ نسقي يدافع عن

---

1 يقول ابن رشد: "ومثال ذلك أن يقول قائل: الزنجي أسود، والزنجي أبيض الأسنان، فالزنجي إذن أسود أبيض معا؛ فإنه قد يمكن أن يعرض في مثل هذا هذا الغلط إذ كان الخلاف الذي بين سواد الزنجي وبياض أسنانه خفي، ولذلك يمكن أن يسلم إنسان ما أن الزنجي أسود ويسلم أنه أبيض من قبل بياض أسنانه، ولكنه ليس بخفي جدا، ولذلك قد يسهل على كثير من الناس حله". انظر: ابن رشد، تلخيص منطق أرسطو، مرجع سابق، ص 676.

الطمأنينيين[1] ويمدحهم. بعد ذلك، وصلنا إلى الحديث عن هيجل، فأكدت أنه كتب حماقاتٍ، أو على الأقل، يورد المؤلفُ الكلماتِ في كثير من مقاطع مؤلّفاته، تاركاً للقارئ مهمة أنْ يحدد معناها. لم يحاول خصمي أنْ يدحض هذه الأقوال بالحجّة على الموضوع ad rem، لكنّه يكتفي بالحجّة على الذات ad hominen قائلا: "انتهيت للتوّ من مدح الطمأنينيين، في حين أنّ هؤلاء الأخيرين قد كتبوا كذلك حماقات".

أقرُّ بهذا، لكن أصوّب إثباته قائلاً إنّني لا أمدح الطمأنينيين باعتبارهم فلاسفةً أو كتّاباً، وإذن ليس لأجل خصائصهم النظرية، لكن فقط بصفتهم أناساً، ولأجل أفعالهم، ومن وجهة نظر عملية صرفة، في حين أنه بالنسبة لهيجل هي مسألة خصائص نظرية. بهذه الطريقة صددت هذا الهجوم.

يبدو أنّ الحيل الثلاثة الأولى متقاربة: تشترك في أن الخصم يتحدث، في الواقع، عن شيء آخر أكثر مما يتحدث عن الإثبات المقدم. سنرتكب إذن تجاهل المطلوب[2] ignoratio elenchi إذا تركنا الطرف

---

1 بمعناه الحقيقي، هو مذهب ميغيل دي مولينوس (1626 - 1696) ومدام غيوّن (1648 - 1717). يقوم هذا المذهب في صورته الجذرية جدّا، على القول إنّ في الإمكان البلوغ اليسير لحالة متصلة من الحب والاتحاد بالله، وهي حالة تمد النفس بسلام مطلق، وهذا يعفيها من كل ممارسة أخلاقية أو دينية أخرى. أما بمعناه العام، فهو كل مذهب يضع الكمال الروحي في حالة تأمل سعيد وساكن. انظر قاموس لالاند الفلسفي.

2 أو تجاهل الرد. "تنتج (أي مغالطة تجاهل المطلوب) عن تجاهل ما يجب البرهنة عليه، فنبرهن على شيء آخر موهين أننا أجبنا عن المطلوب. بمعنى أنها حاصلة عن تجاهل المطلوب إثباته وإثبات شيء آخر مع ادعاء أننا قد أثبتنا المطلوب". حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، أفريقيا الشرق، 2004، ص 176.

الآخر يصرفنا بهذه الطريقة. إنّ ما يقوله الخصم في جميع الأمثلةِ المقدمةِ صادق، ولكن ليس- حقّا - في تعارضٍ مع دعواي، وإنّما ظاهريا فقط. إذن، ذاك الذي يهاجمه الخصم ينفي ما تتضمنه نتيجته، بمعنى أن حقيقة دعواه (أي الخصم) تثبت خطأ دعوانا. إنه دحض مباشر لدحضه من خلال رفض النتيجة per negationem consequentiae.

لا تعترفوا بصدق مقدمات لأنكم تتوقعون النتيجة. نقضاً لهذا، توجد الطريقتان التاليتان، القاعدتان: 4 و5.

الحيلة 4: إخفاء القصد

عندما نريد الوصول إلى نتيجةٍ ما، فلا يجب تركها تُتَوَقَّع، لكننا نحرص بسرية على أنْ يُسلّم بمقدماتها، باثين هذه الأخيرة أثناء المحاورة، وإلاّ فإنّ الخصم سيحاول كل أشكال التحايل؛ أو إذا شككنا في تسليم الخصم بها، فإنه يجب فرض مقدمات هذه المقدمات، وعمل القياسات المركبة des pro-syllogismes[1]، ثم الحمل على الإقرار بمقدمات الكثير

أُنظر أيضاً:

- L'abbé J. Verniolles, cours élémentaires de rhétorique et d'éloquence, librairie delagrave, 1891.p: 36.
- Aristote, les réfutations sophistiques, traduction par J.Tricot, librairie philosophique, J.Vrin, 2003. p. 23.
- عادل مصطفى، المغالطات المنطقية، المجلس الأعلى للثقافة، 2007، ص 59-61.
- أرسطو، منطق أرسطو، نقل يحي بن عدي وعيسى بن زرعة، حققه وقدّم له عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - الكويت، دار القلم - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1980، الجزء الثالث، كتاب السوفسطيقا، ص 826.

1 «إنه حجة مكونة من خمس قضايا تُؤلّف قياسين مترابطين على نحو أنّ نتيجة القياس الأول تصلح أن تكون المقدمة الكبرى للقياس

من القياسات المركبة هذه، وذلك دون نظام لأجل إخفاء مقصدنا إلى غاية أن يقبل بكل ما نحتاجه. لقد أشار أرسطو إلى هذه القواعد[1] في كتاب الطوبيقا (VIII، الفصل الأول[2]). لهذا، ليس ضروريا إعطاء أمثلة.

الحيلة 5: حجج كاذبة

لإثبات أطروحة ما، يمكن كذلك استعمال مقدمات كاذبة، وهذا عندما لا يقبل الخصم المقدمات الصادقة، إما لأنه لا يعترف بصدقها، وإما لأنه يتنبّه إلى أنّ الدعوى تنتج عنها آليا. يجب إذن أخذ قضايا كاذبة في ذاتها ولكن صادقة ad hominen، والمحاجّة انطلاقا من أسلوب تفكير الخصم ex concessis، لأنّ الصدق يمكن أيضاً أن ينتج عن مقدمات كاذبة، في حين أنّ الكذب لا يمكن أن ينتج عن مقدمات صادقة[3]. هكذا يمكن دحض مقدمات الخصم بواسطة مقدمات أخرى

الثاني». L'abbé J. Verniolles, cours élémentaires de rhétorique et d'éloquence, librairie delagrave, 1891.p: 30.

أما جميل صليبا فيعرفه: «هو القياس الذي تكون نتيجته مقدمة لقياس آخر». جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، 1982، ص 210.

وفي ما يخص هذه الترجمة "القياس المركب"، اُنظرْ: لويس شيخو، علم الأدب، الجزء الثاني: في علم الخطابة، مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت، 1926، ص 118.

1 يقول ابن رشد: "وأما الوجوه التي يتأتى بها إخفاء النتيجة، فإنّ أرسطو عدد في ذلك ثلاثة عشر وجها: منها مقدمات خارجة، ومنها أفعال في المقدمات الضرورية". ابن رشد، تلخيص منطق أرسطو، مرجع سابق، ص 627 - 633.

2 أرسطو، منطق أرسطو، المقالة الثامنة، ص 728 - 733.

3 "وذاك أنّ الكذب إنما ينتج لا محالة من الأشياء الكاذبة. فأما الصدق فربما ينتج من الأشياء الكاذبة، وهذا يتبين من كتاب «أنالوطيقا»"، أرسطو، منطق أرسطو، المقالة الثامنة، ص 757.

كاذبة يعتبرها مع ذلك صادقة؛ فلأنه هو من نواجه، وجب استخدام أسلوب تفكيره. مثلا، إذا كان تابعاً لمذهب معين لسنا نعترف به، أمكن أن نستعمل ضده فروض هذا المذهب كمبادئ principia (أرسطو، الطوبيقا، VIII، الفصل: 9).

الحيلة 6: المصادرة على ما ليس مبرهنا عليه

القيام بمصادرة على المطلوب[1] petitio principii خَفِيّةٍ، بالمصادرة على ما يجب البرهنة عليه[2]، إما:

1- باستخدام اسم آخر، مثلا: "سمعة حسنة" محل "الشرف". "الفضيلة" محل "العذرية"... الخ، أو بتغيير المفهوم: "حيوانات ذات دم حار" عوض "الفقريات".

2- إما بحمله على التسليم بما هو مُنْكَرٌ إلى حدٍّ معيّنٍ باعتباره حقيقة كلية، مثلا إثبات لا يقين الطب بالمصادرة على لا يقين كل معرفة بشرية.

3- العكس بالعكس، عندما تنتج مقدمتان الواحدة عن الأخرى، وأنه يتحتم البرهنة على واحدة منهما، فيجب المصادرة على الأخرى.

4- عندما تجب البرهنة على حقيقة كلية مع انعدام إمكانية الحصول على حقائقَ جزئيةٍ. (عكس رقم 2). (أرسطو، طوبيقا VIII، الفصل: 11)[3]

---

1 بالفرنسية pétition de principe، تترجم أيضاً بالمصادرة على المطلوب الأول، وهو أن يُجعل المطلوب نفسه مقدمة في قياس يُراد إنتاجه، كمن يقول إنّ كل إنسان بشر، وكل بشر ضحاك، فكل إنسان ضحاك. انظر المعجم الفلسفي، مراد وهبة، دار قباء الحديثة، 2007، ص 600.

2 أنظر: ابن رشد، تلخيص منطق أرسطو، ص 655 - 656.

3 أرسطو، منطق أرسطو، كتاب الطوبيقا، المقالة الثامنة، ص 761 - 763.

يتضمن الفصل الأخير من طوبيقا أرسطو قواعدَ جيدة في ما يتعلق بالتمرن على الجدل.

الحيلة 7: الحصول على التأييد بواسطة الاستجواب

إذا كانت المطارحة تسير بطريقة دقيقة وصورية شيئا ما، وأنّا نريد الإبانة عن مرادنا بوضوح، فإنّ ذاك الذي عرض القضية والذي يجب عليه أن يثبتها ضد خصمه، يجب أن يجري استجوابا ليستنبط من تنازلاته الخاصة صدق إثباته. هذه الطريقة الاستجوابية érotématique كانت مستعملة من طرف القدامى خاصة (نسميها أيضا الطريقة السقراطية). إليها تستند الحيلة الحالية وبعض الحيل الأخرى التي ستلي (جميعها معدة بحرية في كتاب الأغاليط السفسطائية لأرسطو، الفصل 15).

طرح مجموعة من الأسئلة دفعة واحدة وتوسيع السياق لإخفاء ما يراد أن يُسلّم به. وبالمقابل، عرض حجاجنا بسرعة من خلال التنازلات المحصل عليها، لأن أولئك الذين يبطئون في الفهم لا يمكنهم أن يتابعوا البرهنة بدقة ولا هم يستطيعون إدراك عيوبها أو نقائصها الطارئة[1].

الحيلة 8: إغضاب الخصم

إغضابُ الخصم، لأنه بإغضابه يصير غير قادر على إصدار حكم صحيح وإدراك مصلحته[2]. إغضابه بأن نكون جائرين في حقه، مستفزّينه، وبكيفية عامة، كاشفين عن وقاحة.

1 "فأما أولا فإن التغليط يكون أبلغ إذا قصد تطويل عند استعمال تلك المواضع، فإنه يكون ما فيها من التغليط أخفى على السامع. وثانيا أن يسأل مستعجلا لا متثبطا، فإنه إذا استعجل القول كان التغليط الذي فيه أخفى وأحرى ألاّ يوقف عليه". انظر: ابن رشد، تلخيص منطق أرسطو، مرجع سابق، ص 701.

2 "أن يغضب المجيب، فإنه إذا غضب اختلط فهمه فلم يفهم شيئا، والغضب إنما يثيره أكثر ذلك أن يصرح ويعلن بقلة قصوره وقلة فهمه". انظر: ابن رشد، تلخيص منطق أرسطو، مرجع سابق، ص 701.

الحيلة 9: طرح الأسئلة بترتيب مخالف

عدم طرح الأسئلة بالترتيب الذي تتطلبه النتيجة التي يجب استخراجها منها (أيٍ من الأسئلة)، لكن بجميع أشكال التبديلات[1]. لن يستطيع هو أن يعرف أيضا ما نقصد، ولا هو بمستطيع أن يتنبّه له. ونستطيع أيضا استعمال إجاباته الخاصة لأجل أن نستخرج منها استنتاجات عديدة، حتى المتعارضة، بحسب طبيعتها. هذه الحيلة متشابهة مع الرابعة بقدر ما يجب إخفاء طريقتنا.

الحيلة 10: الاستفادة من نقيض الدعوى

عندما نتبيّن أنّ الخصم يتعمد استبعاد الأسئلة التي ستكون في حاجة لإجابة بالإيجاب لدعم دعوانا، يجب سؤاله عن الدعوى المضادة، كما لو كان هذا ما نريد أن يقبله، أو على الأقل إعطاؤُه الخيارين الاثنين على نحو ألاّ يتعرف نهائيا على الدعوى التي نأمل أنْ يوالي.

1 "فمنها ألاّ يسأل عن المقدمات على الترتيب المنتج، بل يسأل عنها وقد رتبها ترتيبا يوهم نتيجة غير النتيجة المطلوبة. مثال ذلك أن يكون المطلوب الأول أن اللذة خير، فإذا رتبنا المقدمات ترتيبا ينتج هذا المطلوب انتاجا أولا قلنا: أليس اللذة كمالا؟ و: أليس الكمال متشوقا؟ و: أليس المتشوق طبيعيا؟ و: أليس الطبيعي خيرا؟ فينتج عن هذا أن اللذة خير. فأوصى في مثل هذا المطلوب ألاّ يرتب مثل هذا الترتيب، لكن يرتب ترتيبا يوهم أنه إنما قصد بها نتائج غير المطلوب. مثال ذلك في هذه المقدمات أن يقول: أليس اللذة كمالا، والمتشوق كمالا، والطبيعي متشوقا، والطبيعي خيرا؟ فإن هذا، يتضمن النتيجة التي أنتجها الترتيب الأول، يتضمن نتائج آخر". انظر: ابن رشد، تلخيص منطق أرسطو، مرجع سابق، ص 632.

الحيلة 11: تعميم ما يقوم على حالات خاصة

إذا عملنا بالاستقراء، وكان هو يقبل بالحالات الخاصة التي تسمح بدعم دعوانا، فإنه لا يجب أن نطلب منه إنْ كان يسلّم أيضا بالحقيقة الكلية الناتجة عن هذه الحالات المعزولة، لكن تقديمها من بعد كحقيقة مقبولةٍ ومعترفٍ بها؛ لأنه أحيانا سيظن أنه هو الأخر سلّم بها، وشهود المجادلة سيكون لهم الانطباع نفسه، لأهم سيتذكرون مجموعة من الأسئلة المتعلقة بالحالات الخاصة. ستكون هذه الأخيرة قد سمحت إذن بالوصول إلى الهدف المنشود.

الحيلة 12: اختيار استعارات مناسبة

إذا تعلق الأمر بتصور كلي ليست له تسمية خاصة، وأنه يجب تسميته استعارياً بواسطة صورة بلاغية، فلا يجب التردد في اختيار هذه الاستعارة[1] لأجل أن تكون لصالح دعوانا. مثلا، في إسبانيا، الاسمان

---

1 يقول أرسطو في فصل "غموض الحد": "وموضع آخر وهو إن كان قال الشيء على جهة الاستعارة، مثال ذلك إن كان سمى العلم الذي لا ينتقل، أو سمى الهيولى خاصة أو سمى العفة اتفاقا: وذلك أن كل ما يقال على جهة الاستعارة فإنه غامض غير بين. وقد يمكن أن يقول من قال الشيء على جهة الاستعارة على أنه قاله على الحقيقة، فإن الحد الموصوف لا يطابقه كالحال في العفة، وذلك أن كل اتفاق إنما يكون في النغم. وأيضا إن كان الاتفاق جنسا للعفة لكان شيء واحد بعينه يكون في جنسين لا يحوي أحدهما الآخر، وذلك أنه لا الاتفاق يحوي الفضيلة، ولا الفضيلة تحوي الاتفاق.
وأيضا إن كان يستعمل أسماء غير موضوعة كما فعل أفلاطن عند تسميته «العين»: «المظللة بالحاجب»، ويسمي «الرتيلاء»: «متعفنة اللسعة»، وتسميته «المخ»: «المتولد في العظام». وذلك أن كل ما لم تجر فيه العادة فهو غير بين". أرسطو، منطق أرسطو، الجزء الثاني، كتاب الطوبيقا، المقالة السادسة، ص 649.

اللذان يعيِّنان الفريقين السياسيين، العبيد والأحرار serviles et libérales قد اختيرا - يقيناً - من طرف هذين الفريقين.

كلمة "بروتستانتي" كانت قد اختيرت من طرف البروتستانتيين، وبالمثل كلمة "الإنجيلي" من طرف الإنجيليين، لكن كلمة "ملحد" قد اختيرت لهما من قبل الكاتوليكيين.

وهو ما يسري كذلك على أسماء الأشياء عندما تؤخذ بالمعنى الخالص. مثلا، إذا اقترح الخصم تغييرا معينا، نعتناه "بالبدعة"، لأن هذه الكلمة تحقيرية. وسنفعل العكس إذا كنّا نحن الذين نقترحه. في الحالة الأولى، سيسمّى المفهوم المقابل "نظاما قائما ordre établi"، وفي الثانية "اختلالا". ما سيدعوه أيّ شخصٍ مجردٌ من كل تعمّد وانحياز مثلا "عبادةً" أو "ديانةً رسميةً"، ذاك الذي هو إلى صفِّهِ سيوظف كلمة "تقوى"، "ورع"، وخصمهما سيستخدم "تعصّب"، "خرافة". في الواقع، يتعلق الأمر هاهنا بمصادرة على المطلوب petitio principii ممتازة: ما نريد البرهنة عليه نضعه مقدما في الكلمة، في التعيين، والذي ينبجس منهما، فيما بعد، باعتماد حكم تحليلي خالص. عندما يقول أحد ما "وضع نفسه في مأمن se mettre à l'abri"، و"وضع في مكان آمن mettre en lieu sûr"، خصمه سيقول "حبس enfermer". غالبا ما يخون خطيب - مقدّماً - نواياه من خلال تسميته للأشياء. يقول أحدهما "إكليروس" والآخر "الكهنة". من بين جميع الحيل، هذه الأخيرة هي الأكثر استعمالا، فطريًّا. تبشير = تعصب ديني، انحراف أو طيش = فسق، شبهة = فجور، مريض = خرب ruiné، تأثير وعلاقات = رشوة ومحاباة الأقارب، شكران صادق = جزاء حسن.

الحيلة 13: ردّ نقيض الدعوى

للعمل على أن يقبل دعوى ما، يجب علينا أن نقدم لـــه نقـــيض الدعوى وجعله يختار: لكن يجب علينا أن نعلن عن هذا الضد بطريقـــة جد عنيفة بحيث أن الخصم، إذا لم يرد الاهتمام بفن المفارقـــة، مـــرغم على القبول بدعوانا التي تظهر محتملة تماما بالمقارنة مع نقيضها. مـــثلا، يجب عليه أن يسلّم بأن من واجب أيٍّ كان أن يفعل كل ما يطلبه منه أبوه. سنسأله إذن "أ يجب عصيان أو طاعة أبويه في كل شـــيء؟"[1]، أو إذا قال بصدد شيء ما "غالبا"؛ نسأله إن كان يقصد بهذه الكلمة بعض الحالات أو الكثير من الحالات، وسيقول "كثيرا". إنّ هذا أشبه بالحالة التي نضع فيها الرمادي بجانب الأسود، فإنّا نقول عنـــه أبـــيض، وإذا وضعناه بجانب الأبيض، قلنا عنه أسود.

الحيلة 14: إعلان الفوز رغم الخسارة

يتمثل المكر، في حال إذا كان قد أجاب عن مجموعة من الأسئلة دون أن تكون إجاباتُه متفقة مع النتيجة التي نطمح إليها، في التصـــريح بأن الاستنباطَ أيضاً الذي نريد الوصول إليه مبرهنٌ عليه، ولو أنـــه لا

1 "ومنها أن يسأل عما يظن به أنه طرفا ضد ليس بينهما متوسط، وليس الأمر كذلك. فإذا رفع له المجيب الشنيع منهما الى جانب المحمود سلم له المحمود، وذلك أن الشنيع منهما يظهر قبحه كثيرا عندما يوضع بجنـــب الضد الآخر وكذلك المحمود يظهر حمده أكثر. مثل أن يسأل: هل ينبغي أن يطيع الآباء في كل شيء؟ أو يعصيهم في كل شيء؟ فإنه إذا قـــال: ليس ينبغي أن يعصي الآباء في كل شيء، ألزمه عن ذلك أنه يجـــب أن يطيع الآباء في كل شيء. وكذلك إذا سأل: هل المحرم الشراب الكثير أم القليل؟ فأجاب هو بأن الكثير محرم، ألزمه من ذلك أن يكون القليل غير محرم". انظر: ابن رشد، تلخيص منطق أرسطو، مرجع سابق، ص 702.

ينتج عنها بتاتاً، والإعلان عنه بانتصار. إذا كان الخصـــم خجـــولا أو بليدا، وأنّ لدينا أنفسنا الكثير من الجرأة وصوتا حسنا، فإن هذا يمكـــن ينجح. إنّ هذا متعلق بمغالطة اعتبار ما ليس بعلّةٍ علّةً[1] fallacia non causae ut causae.

الحيلة 15: استعمال حجج غير معقولة

إذا نحن عرضنا دعوى مفارقية صعبت علينا البرهنة عليها، فإنه في هذه الحالة يجب أن نقدّم للخصم أية قضية صحيحة، لكـــن بصـــحَّة ليست واضحة تماما، بهدف أن يقبلها أو يرفضها، كما لو أننا أردنا أن نستخرج منها برهاننا. فإذا رفضها مرتابا، نربكه كونه وقع في الخلف ad absurdum فنَفوزَ. وإذا قبلها، فمعنى هذا أننا حصلنا على أقـــوال معقولةٍ، ويمكن أن ننتظر البقية، أو نضيف الحيلة الســـابقة ونؤكـــد، بالتالي، أنّ مفارقتنا مبرهن عليها. يلزم المرء، للقيام بهذا، أن يكون على وقاحة كبيرة، لكنْ هنالك أشخاص يطبقون هذا بطريقة فطرية.

الحيلة 16: الحجة على الذات ad hominem

الحجة على الـــذات[2] أو ســـابق التنـــازلات argumenta ad

---

1 يسمي ابن رشد هذه المغالطة بـــ: "أخذ ما ليس بسبب على أنه سبب" أو "أخذ ما ليس بعلة للنتيجة على أنه علة". انظر: ابن رشد، تلخـــيص منطق أرسطو، مرجع سابق، ص 675، 678.

2 يعرف جون لوك الحجة على الذات ad hominem في كتابه "مقال في الفاهمة الإنسانية"، فيقول: "والطريقة الثالثة هي أن تهاجم شخصاً مـــن خلال النتائج المستخرجة من خاصٍّ مبادئه أو تنازلاته". John Locke, an essay concerning human understanding, edited by Roger Woolhouse, penguin classics, 1997, 2004, p. 606.

وهي عند فيرنيول: "قياس إضماري نعتمد فيه أقوال الخصم وأفعاله لهزمه والقضاء عليه". L'abbé J. Verniolles, cours élémentaires de rhétorique et d'éloquence, librairie delagrave, 1891, pp: 34
أما عند مايير، فهي: «حجة تقوم على الاختلاف والمسافة بين الأفراد». Michel meyer, qu'est-ce que l'argumentation, librairie J. Vrin, 2008, p. 116.
ولعلّ هذه الحجة هي التي عناها أرسطو في كتاب الخطابة، إذ يقول: «وموضع أخر يؤخذ من الكلام المتلفظ به ضدنا فنرجعه نحن إلى من قاله». الخطابة، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، 2008، ص 160.
إلا أنّ بعض الكتابات المعاصرة ترى أن معناها التهجم على الشخص personal attack، ولعل أهمها كتاب دوجلاس والتون "الحجج على الذات ad hominem arguments"، فيقع الخلط بينها وبين الحجة على الشخص ad personam. وشرح الأمر أنّ والتون يعتبر أنّ حدّ مفهوم ad hominem عند جون لوك وشوبنهاور وآخرين أمثال جاليليو وفينوكتشايرو Finocchiaro، برلمان وأولبرخت تيتيكا... يجعله حجة جدلية لا سفسطائية، وهو عنده حجة سفسطائية لا جدلية. لكن حيث يفصل دوجلاس، فثمة الوصل عند شوبنهاور، إذ خالف هذا الأخير أرسطو، فدعا إلى ضرورة الجمع بين الجدل والسفسطة لّما قال: "يجب علينا إذن أن نجمع تحت مصطلح الجدل الأرسطالي: السفسطة، والمرائية (المشاغبية)، والمتحنية la péirastique، وتعريفه كفن أن نكون دائما على صواب في المطارحة". فهذا وجه الخلاف بين والتون وشوبنهاور. لِنُضِفْ أنّ دوجلاس لما هو ميّز في ad hominem بين: حجة الالتزام أو التنازل argument from commitment (or ex concessis) والهجوم على الشخص personal attack، تجده يحدُّ المفهوم باعتماد ثاني القسمة متغافلا أو متناسيا أول التقسيم قائلا: "الحجة على الذات أو الهجوم على الشخص هو الرد الدفاعي الآني على أي حجة جديدة شديدة الإزعاج في المطارحة والقضية القطب، لاسيما عندما تكون المصالح محددة والعواطف متأججة حول القضية".
وتنقسم الحجة على الذات إلى أنواع أهمها:
أ- ad hominen Circumstantiæ الحجة على الذات بالظرف: وهي الاستناد إلى الوقائع الماضية أو العقائدية للمحاور لتبكيته

hominem ou ex concessis. عندما يقوم الخصم بإثبات ما، يجب علينا أن نبحث عن معرفة ما إذا لم يكن بطريقة ما، وإذا كان في الظاهر فقط، متناقضا مع بعض ما قاله أو سلم به سابقا، أو مع مبادئ مدرسة أو طائفة كان قد امتدحهما، أو مع أفعال أنصار هذه الطائفة، سواء كانت سليمة أو غير سليمة، أو مع أفعاله وحركاته. وإذا انحاز مثلا لصالح الانتحار، يجب الصراخ في الحال قولاً: "لماذا لا تشنق نفسك؟"، أو إذا أكّد مثلاً أنّ برلين مدينة بشعة: نصرخ حالاً قائلين: "لماذا لا ترحل عنها وأوَّلَ همّة؟".

على كل حال، سنصل إلى إيجاد مناورة ما بطريقة أو بأخرى.

الحيلة 17: المقاومة بالمبالغة في التدقيق

إذا كانت للخصم مدافعة أربكتنا، يمكننا - في الغالب - أن نتخلص من الأمر بفضل تمييز بارع لم نفكر فيه من قبل، إذا كان صحيحا أن موضوع المجادلة يقبل تأويلا مزدوجا أو حالتين متمايزتين.

والنيل منه. بيان لامناسباتية قوله لهذه الوقائع. مثلاً، زيد يدّعي أنه ممكن القتل وسورةَ الغضب، لكنه ليس بممكن لأنه لا يفقد أبداً برودة أعصابه. انظر في هذا الصدد: حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، أفريقيا الشرق، 2004، ص 198.

ب- ad hominem tu quoque الحجة على الذات بالأنت أيضا: يتعلق الأمر هاهنا بالطعن في الشخص من خلال أقواله وفعاله الماضية. يمكن تلخيص هذه الحجة في قول الشاعر أبي الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم.

مثلا طبيب يدعو إلى عدم التدخين، وهو قد عُرِف بإدمانه عليه.

إنّ الحجة على الذات ad hominem، بأوجزَ العبارة، تسمية لقولهم «من قولك أذينك».

الحيلة 18: مقاطعة وتغيير المجادلة

إذا انتبهنا إلى أن الخصم قد حاز حجة ستسمح له بهزيمتنا، وجب علينا منعه من الوصول إلى منتهى برهنته، بأن نقطع، في الحال، المناقشة ونغيّر مجراها، متجنبين أو محولين المجادلة إلى قضايا أخرى. باختصار، يجب إحداث تعديل في موضوع المطارحة mutation controversiae.

الحيلة 19: التعميم بدلا من مناقشة التفاصيل

إذا كان الخصم يفرض عمداً أن نحاجج ضد جانب محدد من إثباته، و لم يكن لدينا شيء مناسب نقوله، وجب تعميم المجادلة ومعارضته. وإذا لزمنا أن نقول لماذا فرضية فيزيائية ما غير موثوق بها، فإننا سنتحدث عن الطابع المغالطي للمعرفة البشرية، وسنمثل لذلك بجميع أنواع الأمثلة.

الحيلة 20: استخراج النتائج

إذا طالبناه بالمقدمات فسلّم بها، وجب، ليس فقط أن نطالبه، زيادةً، بالنتيجة، لكن أن نستخرجها نحن أنفسنا، وحتى لو غابت إحدى المقدمتين، اعتبرناها مسلمة واستنبطنا النتيجة. إنّ هذا تطبيق لـ fallacia non causea ut causea (مغالطة اعتبار ما ليس بعلّةٍ علّةً).

الحيلة 21: مقابلة فاسد الحجج بفاسد الحجج

في حالة حجة مموّهة أو مغالطية للخصم لم ننخدع بها، نقدر طبعا على هدمها بأن نشرح ما فيها من مكر وخداع وتغليط. لكن من الأفضل معارضتة بحجة مضادة أيضا مموّهة ومغالطية بهدف

الانتقام منه، لأن ما يهم ليس الحقيقة، بل الانتصار. ولو قدم، مـــثلا، الحجة على الذات argumentum ad hominem، يكفي تجريده منها بحجة على الذات مضادة ad hominem (ex concessis). وبكيفية عامة، عوض الالتزام بالنقاش مطولا حول الطبيعة الحقيقية للأشـــياء، سيكون من الأسرع تقديم الحجة على الذات ad hominem عند أولّ فرصة.

الحيلة 22: المصادرة على المطلوب petitio principii

إذا طالب بأن نقبل بأمر ما يصدر منه مباشرة المشكل المتجـــادل حوله، يجب الامتناع مدّعين أنّ الأمر يتعلـــق هنــــا بمصـــادرة علـــى المطلوبpetitio principii؛ لأنه هو وشهود المجادلـــة ســـيميلون إلى اعتبار قضيةٍ قريبةٍ من المشكل مماثلة له. بهذه الطريقة، ســـنحرمه مـــن حجتة الأقوى.

الحيلة 23: إجبار الخصم على المبالغة

إنّ المناقضة والمنازعة تحثانه على المبالغـــة في إثباتـــه. بمناقضـــته، نستطيع إذن أن ندفع الخصم إلى أن يمدِّدَ إثباتا، على المحتمل، صـــحيحاً في الحدود المطلوبة، إلى خارج الحقيقة؛ وبمجرد أن ندحض هذه المبالغة، فإننا قد دحضنا دعواه الأصلية. في المقابل، يلزمنـــا أن نحتـــرس مـــن الانسياق مع المناقضة المراد المبالغة فيها أو من توسيع مجال دعوانا. غالبا أيضا ما سيحاول الخصم نفسه، مباشرة، تقليص الحدود التي حدّدناها: يجب منعه حالا، وردّه إلى حدود إثباتنا قائلين: "هذا ما قُلْتُهُ، ولا أكثر من ذلك".

الحيلة 24: فن استخلاص نتائج كاذبة

فن استخلاص النتائج. نجبر دعوى الخصم بأن نستخلص منها نتائج كاذبة وأن نشوّه المفاهيم، لأجل أن نستخرج منها قضايا غير موجودة فيها والتي (أي القضايا) لا تعكس رأي الخصم، لأنها على العكس غير معقولة أو خطرة؛ وبما أنه يبدو أنّ من دعواه تنتج قضايا إما تتناقض مع نفسها، أو تناقض حقائق معترفا بها، فإنّ هذه الحيلة تعرف بالدحض غير المباشر، والخلف، وهي أيضا تطبيق لـ ut causea fallacia non causea (مغالطة اعتبار ما ليس بعلّةٍ علّةً).

الحيلة 25: الحجة الفرعية أو إيجاد الاستثناء

تتعلق بالخلف عن طريق حجة فرعية exemplum in contraruim. فالاستقراء L'ἐπαγωγή، inductio، يحتاج إلى عددٍ كبير من الحالات لعرض دعواه العامة. أما الاستنباط ἀπαγωγή فليس في حاجة إلاّ لعرض حالةٍ واحدةٍ مناقضةٍ للقضية لكي يمكن دحض هذه الأخيرة. هذا الأمر يسمى حجة فرعية ἔυστασις، instance، exemplum in contraruim. مثلا، الدعوى "كل الحيوانات المجترّة ذات قرون"، تدحض بالحجة الفرعية الوحيدة للجمَال.

إنّ الحجة الفرعية حالة تطبيق للحقيقة الكلية، أي شيء ما لإدراجه تحت هذا المفهوم الكلي، لكن الذي لا علاقة له بهذه الحقيقة، بل الذي أمره أن يدحضها تماما. مع ذلك، يمكن للأمور أن تكون خدّاعة، لذلك يجب مراعاة الأمور التالية عندما يعمد الخصم إلى حجج فرعية:

1- هل المثال حقا مضبوط: هنالك مشاكل حلّها الوحيد الحقيقي هو أنّ الحالة المعروضة غير مضبوطة، مثلا، العديد من المعجزات، وحكايات الأشباح... الخ.

2- أ يتعلق حقا بمفهوم الحقيقة المقدمة: ليس هذا في غالب الأمر إلاّ ظاهريا. والسؤال لا يمكن حلّه إلا بالقيام بتمييز واضح.

3- هل هو حقا في تناقض مع الحقيقة المقدمة: ليس هذا في الغالب أيضا إلا ظاهريا.

الحيلة 26: عكس الحجة على الخصم

تقنيةٌ لامعةٌ هي عكسُ الحجّةِ retorsio argumenti، عندما نعتمد الحجة التي استخدمها الخصم لتحقيق أغراضه، ونستخدمها ضده بشكل أفضل. مثلا، يقول: "إنه طفل، لا بدّ من التسامح معه". العَكْسُ retorsio: "لأنه حقّا طفل، تجب معاقبته لئلاّ يتحجّر على عاداته السيئة".

الحيلة 27: الغضب ضعف

إذا أغضبَتْ حجّةٌ ما الخصم فجأة، وجب الاجتهاد في الدفع بهذه الحجة بعيدا: ليس فقط لأنه من الأفضل إغضابه، لكن لأنه يفترض أننا أصبنا نقطة الضعف في استدلاله، وبأنه يمكننا بدون شك مهاجمته أكثر في هذه النقطة.

الحيلة 28: إقناع الجمهور وليس الخصم

تستخدم هذه الحيلة، خاصة، عندما يتناقش علماء أمام مستمعين غير متعلّمين. وعندما لا نتوفر على الحجة على الموضوع argumentum ad rem، ولا على الحجة على الذات argumentum

ad hominem، يجب تقديم الحجة بالمستمعين[1] ad auditores، أي اعتراض غير صحيح لا يعلم عدم صحّته إلا المتخصص، وهذا المتخصص هو الخصم، وليس المستمعين. في نظرهم، الخصم هو الذي انهزم، خاصة متى جعل الاعتراضُ إثباتَه مثيرا للسخرية. إنّ الناس مستعدون دوما للضحك، وبالتالي لنا الضاحكون إلى صفّنا. ولإثبات بطلان الاعتراض، يلزم الخصم أن يقوم ببرهنة طويلة وأن يعود إلى المبادئ العلمية أو إلى وقائع أخرى، وسيشقّ عليه أن يُفْهَمَ.

مثال: يقول الخصم: خلال تكون الجبال البدئية، كانت المادة التي تبلور منها الكرانيت وباقي هذه الجبال، سائلة بسبب الحرارة، وإذن منصهرة: الحرارة لزم أن تكون حوالي 200 ريومير[2] réaumur، والمادة تبلورت تحت سطح البحر الذي يغطيها. نقدم الحجة بالمستمعين argumentum ad auditores قائلين إنّه في درجة الحرارة هذه، وكذلك قبلها بكثير، حوالي 80 درجة، كان البحر سيشرع منذ مدة طويلة في الغليان، فيكون قد تبخر في الجو. سينفجر المستمعون ضحكا. ولكي يهزمنا، يلزمه البرهنة على أنّ درجة الغليان لا تتعلق

---

1 وهي التي تقوم على استمالة الجمهور أو المستمعين والتأثير عليهم حصولا على تأييدهم، فيكون الجمهور حجة لنا وحجة على الخصم. إن انتصارنا مقترن هو إذن بتشجيع الجمهور لنا، مثلا إما تصفيقا لنا وإما ضحكا على الخصم. مثال: يدافع الخصم عن كون الإنسان حيوانا ناطقاً، نعترض قائلين: هل معنى هذا أنّ أنا الذي أناقشك والجمهور المستمع إليك حيوانات! وأنّى للحيوان أن يفهم الإنسان؟

2 عبارة عن مقياس لدرجة الحرارة صمم في عام 1731 بواسطة الفيزيائي والمخترع الفرنسي رينيه أنطوان فركولت دي ريومير réné-antoine ferchault de Réaumur (1683–1757) الذي عرّف مقياس الحرارة من خلال التمدد الواضح للكحول ومُعَيِّراً مجالا مرجعيا بين نقطة تجمّد الماء (القيمة: صفر) ودرجة غليان الماء (القيمة: 80).

فقط بدرجة الحرارة، لكن كذلك بالضغط الجوي وأن هذا الأخير، بمجرد أن يتحول نصف البحر مثلاً إلى بخار ماء، سيكون قد ارتفع بحيث لن يكون هناك غليان، ولو عند 200 درجة ريومير. لكنه لن يقوم بهذا، لأنه مع عدم وجود فيزيائيين، فإنه تلزمه محاضرة حقيقية.

الحيلة 29: الحيد عن الموضوع

إذا انتبهنا إلى أننا سنهزم، فإنه يجب القيام بالحيد عن الموضوع[1] diversion، بمعنى أن نبدأ فجأة في الحديث عن شيء مختلف تماما كما لو إذا كان هذا جزءا من الموضوع المتجادل عليه، وكان حجة ضد الخصم. يتم هذا برصانة إذا كان للحيد عن الموضوع علاقة بالموضوع قيد السؤال quaestionis thema، وبوقاحة إذا كان لا يتعلق إلا بالخصم، ولا علاقة له بموضوع المجادلة.

1 أو مغالطة الرنجة الحمراء red herring. "هي حيلة كان يستعملها المجرمون الفارون لتضليل كلاب الحراسة التي تتعقبهم، وذلك بسحب سمكة رنجة حمراء عبر مسار المطاردة، فتجتذب الكلابَ رائحتُها الشديدة عن رائحة الطريدة الأصلية. وقد استُعيرت للتعبير عن كل محاولة لتحويل الانتباه عن المسألة الرئيسية في الجدل، وذلك بإدخال تفصيلات غير هامة، أو بإلقاء موضوع لافت أو مثير للانفعالات وإنْ يكن غير ذي صلة بالموضوع المعني ولا يشبهه إلا شبها سطحيا، فيقذف بالخصم خارج مضمار الحديث.
من دأب محترفي هذه المغالطة أنْ يستهلكوا الخصم في ترّهاتٍ خارجةٍ عن الجادة، وأنْ يثيروا مشاعرَ المستمعين وانتباههم بطرح مسألة برّاقة أخّاذة وإنْ تكن بعيدة عن موضوع الحديث؛ فتهوي إليها أفئدة الحضور ولا يعود أحد يذكر الموضوع الأصلي. إنهم بذلك لا يحاجّون بل يصخبون ويتلاعبون ويتداهون وينفثون سحابات التمويه والتعمية، ويتحدثون في أيّ شيء إلاّ الشيء المعني، وكثيرا ما ينجحون في صرف الانتباه وتحويل مسار الحديث وتبديد النقاش؛ فينفردون بالساحة حقا ويبدون منتصرين في الجدل، وكأنهم يفوزون لتغيب الخصم!". عادل مصطفى، المغالطات المنطقية، المجلس الأعلى للثقافة، 2007، ص 63-64.

مثلا: أجد جديرا بالملاحظة أنّ الصين ليست تعترف بنبل المحتد، وأنّ الوظائف ليست تُسند فيها إلاّ بعد إجراء الامتحان. لكن خصمي أكّدَ أن المعرفة لا تؤهّل إلى القيام بوظيفة أكثر من امتياز الولادة (وهو ما يقدره كثيرا). الأمور أخذت مسارا مزعجا بالنسبة له. في الحال، سيقوم بالحيد عن المطلوب، قائلا إنّ جميع الطبقات الاجتماعية في الصين يمكن أن تتعرض للضرب بالعصا، الأمر الذي يضعه في علاقة مع الاستهلاك المفرط للشاي، ثم يشرع في لوم الصينيين على الأمرين. وإذا كنّا قد أخذنا في الرّد على كل هذا، سنكون آنذاك قد زغنا وأضعنا من بين أيدينا انتصارا أكيداً.

يكون الحيد عن الموضوع وقحا عندما يغادر كليا موضوع المجادلة ويبدأ مثلا هكذا: "نعم، وبالضبط ادّعيتَ قبل قليل أنّ..." الخ. لأنه يندرج بطريقة ما في هذه "الهجمات الشخصية" التي ستكون موضوع الحيلة الأخيرة. للحديث بدقة، هو يحتل مرحلة وُسطى بين الحجة على الشخص[1] ad personam، المعروضة في هذا الفصل، والحجة على الذات ad hominen.

---

1 argumentum ad personam أو الحجة على الشخص، ومعناها التجريح أو المسّ بشخص المحاور والتركيز على مثالبه (الفكرية، الوجدانية، السلوكية)، أي أننا ننصرف عن أقواله ونطعن في شخصه. هي إذن هجمات شخصية لا علاقة لها بموضوع المجادلة: مثلا برلماني يدافع في مؤتمر صحافي عن فكرة أن الديمقراطية في المغرب لا تختلف عن الديمقراطية في الدول الأوروبية، ندحض فكرته من خلال الردّ عليه بكونه شيخ المفسدين وإمامهم، ونذكر له بعض جرائمه. معنى هذا أن الشخص غير الشريف ليس يُؤْمَن بأقواله وفعاله. وهي تختلف عن الحجة على الذات ad hominem باعتبار هذه الأخيرة تستهدف دحض إثباتات وتنازلات الخصم إنْ هي خالفت أقواله و/أو أفعاله في علاقتها بموضوع المجادلة، ثم هي تتحول عن الحقيقة الموضوعية (الشيء المتجادل حوله) إلى التركيز على ما قاله الخصم عنها أو سلم به لها.

كل خصومة بين العامّة من الناس تبيِّن إلى أي حدٍّ أن هذه الحيلة هي شبه فطرية. في الواقع، عندما يلوم أحدٌ ما الآخر لوماً شخصياً، فهذا الأخير لا يجيب رافضا هذا اللّوم، لكنه هو الآخر يؤاخذ خصمه مآخذ شخصية، تاركا جانبا تلك التي آخذناه عليها ومتظاهراً بالإقرار بشرعيتها. يتصرف كسبيون scipion الذي هاجم القرطاجيين ليس في إيطاليا، بل في إفريقيا. في الحرب، هذا الحيد عن الموضوع يمكن أن ينفع، أما في المنازعات فهو غير صالح، لأننا لا نكترث للمؤاخذات المتلقاة وأن الشهود يحفظون كل مساوئ الطرفين الحاضرين. يمكن استعمال هذه الحيلة في المطارحة، لعدم توفر الأفضل[1] faute de mieux.

الحيلة 30: حجة السلطة argumentum ad verecundiam

حجة السلطة[2] argumentum ad verecundiam (حجة همّ الشرف). عوض الالتجاء إلى أدلة، تجب الاستعانة بالسلط المعترف بها في هذا المجال بحسب مستوى معارف الخصم. قال سينيكاSénèque: "يفضل كلُّ واحدٍ الاعتقادَ أكثر من الحُكْمِ" Unusquisque mavult credere quam judicare، (في De vita beata، I، 4). قد حالفنا الحظ إذن، إذا كنا نستند إلى سلطة يحترمها الخصم. ومع ذلك،

1 بالفرنسية في النص الأصلي.

2 أو حجة الاحترام، وتعرف أيضاً بـ: argumentum ad potentiam، ipse dixit ("قاله هو نفسه"، باعتبار الضمير "هو" يمثل السلطة المستشهد بها). وتتمثل في استدعاء سلطة ما أثناء المحاجّة، وإعطاء قيمة لقول ما باعتبار أصله لا مضمونه. مثلا، شخص مسلم يعارض كونَ الكونِ نشأ عن انفجار كبير، نقنعه باللجوء إلى القرآن كسلطة تنال احترامه، فنتلوا له قوله تعالى: "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ". سورة الأنبياء، الآية 30.

سيكون له الكثير من السلط الصالحة بقدر ما تكون معارفه وكفاءاته محدودة. إذا كانت هذه الأخيرة من الطراز الأول، فإنه لن يعترف إلا بالبعض من السّلط أو لا بأيّ واحدة منها. وعند الاقتضاء، سيثق بالناس المتخصصين في علم ما، وفي حرفةٍ أو فنٍّ لا يعرفه إلا قليلا أو لا يعرفه بتاتا، وأيضا لن يفعل هذا الأمر إلاّ مرتابا. في المقابل، للعامة من الناس احترام عميق للمتخصصين في كل ميدان. يجهلون أن السبب الذي لأجله نمتهن شيئا ما ليس هو حب هذا الشيء، وإنّما لأجل ما نجنيه منه، وأن الذي يُعلّم أمراً قلّما يَعْلَمُهُ جيّدا لأنه إذا هو درسه بتعمق لنْ يتبقّى له عموما الوقت لتدريسه. لكن بالنسبة للعامة le vulgus هناك الكثير من السلط المستحقة للاحترام. إذن، إذا لم نجد من بينها الملائمة، يجب أن نأخذ منها واحدة تبدو ملائمة ظاهريا، والاستشهاد بقول أحدٍ ما في غير سياقه أو في ظروف مختلفة. هي السلط التي لا يفهم منها الخصم ولا كلمة، والتي لها التأثير الأكبر. إنّ لغير المتعلمين احتراماً خاصا لصور الخطابة الإغريقية واللاتينية. نستطيع أيضا، عند الضرورة، ليس فقط التشويه، لكن تزييف ما تقوله السلط التزييف الصريح، أو أيضا الابتداع بلا قيدٍ ولا شرطٍ. على العموم، ليس الكتاب موجودا بين يدي الخصم، ولا هو يعلم البتة استخدامه. المثال الأحسن هو مثل ذلك الكاهن الفرنسي الذي، لِئلاّ يُجبَرَ على تبليط الطريق أمام منزله كالمواطنين الآخرين، ردّد العبارة الثوراتية: "فَلِيَرْتَعِدُوا، أنا لن أرتعد أبداً paveant illi, ego non pavebo". وهذا ما أقنع المستشار البلدي. ويجب أيضا استعمال، في موضوع السلط، الأحكام المسبقة الأكثر شيوعا، لأن معظم الناس يظنون مع أرسطو أنّ ما يبدو للجمهور صحيحا، نقول أنه حق ά μευ πολλοις δοκει ταυτα γε ειυαι φάμευ (الأخلاق إلى نيكوماخوس): في الواقع، ليس هناك أيُّ رأي،

مهما كان سخيفا غير معقول، لم يَتَبَنَّهُ الناس بسرعة بمجرد أنْ ننجح في إقناعهم بأنه كان عموما مقبولا. أمرُ الاقتداء أنْ يؤثر على فكرهم كما على تصرفاتهم. إنهم خرفان يتبعون الكبش بإشارة الرأس أنّى يقودهم: الموت عندهم أهون وأسهل من التفكير. من الغريب جدا أنّ لكلّية رأيٍ ما كبيرَ قيمةٍ بالنسبة لهم ما داموا يستطيعون أن يلاحظوا في أنفسهم أنه يتم تبني آراء دونما محاكمة وبموجب الاقتداء فقط. لكنهم لا يدركونه، لأنهم مجردون من كل معرفة بأنفسهم. هي النخبة وحدها من تقول مع أفلاطون: ألاَ إنّ كثْرَةَ النّاسِ مَكثَرةٌ للأفكار التي تظهر صحيحة τοῖς πολλοις πολλά δοκεῖ. معنى هذا أنّ العامة le vulgus ليس لديها إلا التفاهات في رأسها، وإذا أردنا أن نقف عندها، سيكون لدينا الكثير مما نفعله.

لو تحدثنا بجدية، لتبيّن أنّ الطابع الكلي لرأي ما ليس بيِّنةً ولا أيضا معيار احتمال صحته. فأولئك الذين يدّعون هذا، مجبرون على أنْ يسلِّموا بـ:

1- أنّ التّقادم l'éloignement dans le temps يَحْرُمُ هذا الطابع الكلي من قوته البرهانية، وإلاّ وجب أنْ يُحيِّوا جميع الأخطاء القديمة التي اعتبرت على العموم حقائق، مثلا نظام بطليموس، أو أن يبعثوا مجدّدا الكاثوليكية في جميع البلدان البروتستانتية.

2- أنّ التّنائي l'éloignement dans l'espace يعمل بالشكل نفسه، وإلا سَنُزَعزِع كلّية الاعتقاد عند أتباع البوذية، والمسيحية والإسلام (حسب بنتام Bentham، تكتيك التجمعات التشريعية Tactique des assemblées législatives، الكتاب 2 ص 76).

إنّ ما يسمى الرأي المشترك هو، بالنظر إليه جيدًّا، رأيُ شخصين أو ثلاثة أشخاص، وقد يمكننا أن نقتنع به إذا نحن لاحظنا

كيف تولد فكرة كهذه. سنلاحظ إذن، أنهما في البداية شخصان أو ثلاثة أشخاص هم الذين سلموا به أو أوردوه وأكّدوه، وإنه من باب الرفق بهم الاعتقاد أنهم فحصوه تماما. والبعض الآخر طفق بالمثل، مستعجلاً الحكم بالكفاءة الكاملة لهم، في تبني هذا الرأي. بدوره، عدد كبير من الأشخاص يركنون إلى هؤلاء. يحملهم كسلهم على تصديق الأمور دفعة واحدة عوض عناء فحصها. هكذا ازداد يوما بعد يوم عدد هؤلاء الأتباع الكسالى والسذّج، لأنه بمجرد أن يحوز الرأي عددا لا بأس به من الأصوات، يظنّ اللاحقون أنه ما كان له (أي الرأي) أن يشدّهم إلاّ بفضل صحة أسسه. والآخرون مجبرون إذن على الاعتراف بما كان مقبولا عامة لكيلا يتمَّ اعتبارهم أرواحاً قلقة ثائرة ضد آراء مقبولة عالميا، ووقحين يحسبون أنفسهم أشدّ مكرا من جميع الناس. إنّ التأييد إذاً أصبح واجباً. من الآن فصاعدا، العدد القليل من أولئك الذين هم قادرون على الحكم مجبر على الصمت، وأولئك الذين لهم الحق في الكلام هم أولئك العاجزون تماما عن أن يختلقوا لأنفسهم رأيا وحكما، والذين ليسوا إذن إلاّ صدى لآراء الغير. إنهم مع ذلك مدافعون عنها، شديدون ومتعصبون. لأن ما يمقتونه عند ذلك الذي يفكر على نحو مغاير، ليس كثيرا الرأي المخالف الذي يعظّمه أكثر من التعجرف الموجود لديه في إرادته الحكم بنفسه، الشيء الذي لا يفعلونه أنفسهم بطبيعة الحال أبداً، والذي هم واعون به في سرّهم. باختصار، القليل من الناس يحسنون التفكير، لكن الجميع يريد أن يمتلك آراءً. فهل بقي لهم من شيء غير تبنيها كما يعرضها عليهم الآخرون عوض اصطناعها بأنفسهم؟ أمّا والحالة هذه، ماذا يساوي رأي مائة مليون رجل؟ مثل هذا كمثل حدثٍ تاريخيٍّ مقرّرٍ من طرف مائة مؤرخ عندما يتبيَّن في ما بعد

تَناحلُهم، وعندما يظهر أن الكل يستند إلى أقوال شخص واحد (حسب بايل Bayle. أفكار حول المذنبات. كتاب 1 ص 10):

"أنا أقوله، أنت تقوله، لكنه هو الآخر أيضا قاله:

Dico ego, tu dicis, sed denique dixit et ille

بعد أن قيل هذا مرات كثيرة، لسنا نرى إلا أقوالا".

Dictaque post toties, nil nisi dicta vides

مع ذلك، نستطيع، عندما نتخاصم مع عامة الناس، استعمال الرأي الكلي كسلطة.

بصفة عامة سنلاحظ أنه عندما يتنازع إنسانان عاديان، فإنها شخصيات سلطوية هي التي يختارها الواحد والآخر كأسلحة، والتي يستعينون بها للتضارب. إذا كان شخص ذكي يواجه شخصا من هذا النوع، فالأفضل هو أن يلجأ بدوره إلى هذا السلاح، مختارا إياه بحسب مكامن ضعف خصمه. لأنّ هذا الأخير، بالمقارنة مع سلاح الحجج، هو، افتراضاex hypothesi، سيغفريد[1] siegfried مصفح، غارق في تيار من العجز عن التفكير والحكم.

في المحكمة، لا يتم التجادل في الواقع إلاّ عبر السلط، أي السّلطة المُحْكَمَةَ للقوانين: مهمة السلطة القضائية اكتشاف القانون، أي السلطة المطبقة في الحالة موضوع السؤال. لكن للجدل الكثير من ميادين الفعل، لأنّ – إذا كان ضروريا – الأمرَ المفحوصَ وقانوناً ما، اللذين لا يتماشيان في الواقع معا، يمكن أنْ يُشوَّهَا إلى درجة اعتبارهما متفقين أو العكس.

1 سيغفريد دو قسنطين أو سيغورد siegfried de xenten ou sigurd، المسمّى "قاتل التّنانين"، هو بطل خرافي في الأساطير النرويجية.

الحيلة 31: لست أفهم شيئا مما تقوله

إذا لم نعرف ما نعارض به حجج الخصم المقدّمة، يجب، باستهزاء رفيع، الاعتراف بالعجز: "ما تقوله هنا يتجاوز ملكات فهمي الضعيفة، ربّما هو صحيح تماما، لكنني عاجز عن الفهم، وإنني أتنازل عن كل حكم". بهذه الطريقة، تلمّح، أمام مستمعين يقدّرونك، إلى أنها حماقات. كذلك الأمر عند ظهور نقد العقل الخالص، أو بالأحرى منذ بدأ يترك أثرا عميقا، أعلن العديد من أساتذة المدرسة الانتقائية القديمة "نحن لسنا نفهم منه شيئا"، معتقدين بهذا أنهم قد انتقموا منه. لكن عندما أثبت لهم بعض أتباع المدرسة الجديدة أنهم محقون وأنهم حقا لا يفهمون منه شيئا، أساءهم ذلك.

لا يجب استعمال هذه الحيلة إلا عندما نكون متأكدين أننا سنحظى إزاء المستمعين باحترام يفوق بوضوح ذلك الذي يحظى به الخصم. مثلا، عندما يعارض أستاذ تلميذا. الحق يقال، إنّ هذه الطريقة هي جزء من الحيلة السابقة وتتمثل، بشكل جد ماكر، في أن يعتمد سلطته الخاصة عوض إيراد حجج صحيحة. الهجوم المضاد إذن أن نقول: "اعذرني، لكن بالنظر إلى عظمة قدرة فطنتك، أكيد أنه يسهل عليك الفهم، كل هذا راجع إلى سوء عرضي"، وأن نكرر له كذلك الأمر الذي هو مرغم، طوعا أو كرها volens nolens، على فهمه، والذي صار واضحا أنه لم يفهم منه في الحقيقة أي شيء من قبل. هكذا أجبنا. يريد أن يلمّح إلى أننا نقول تفاهات، فأثبتنا "غباوته". يتم كل هذا بأبلغ اللباقة.

الحيلة 32: مبدأ الجمع المهين

نستطيع بسرعة إقصاء أو على الأقل التشكيك في إثبات الخصم المتعارض مع إثباتنا بأن ندرجه ضمن فئة مقيتة، مهما كان قليلا ارتباطه بها بالمشابهة أو حتى بغموض. مثلا:

"إنها مانوية[1]، إنها أريوسية[2]، إنها بيلاجيوسية[3]، إنها مثالية[4]، إنها اسبينوزية[5]، إنها حُلُولِيَّة[6]، إنها براونية[7]، إنها طبيعانية، إنه إلحاد، إنها عقلانية، إنها روحانية، إنها صوفية، الخ..."

بالقيام بهذا، نحن نفترض شيئين:

1- أنّ الإثبات قيد المسألة هو في الحقيقة مماثل لهذه الفئة، أو على الأقل متضمَّن فيها، ونصرخ قائلين إذن: "أوه، نحن على علم بذلك".

---

1 نسبة إلى ماني (216-276 م)، مؤسس المانوية، وهي ديانة غنوصية انتشرت بصورة كبيرة في بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس في القرن الثالث ميلادي.

2 مذهب غير مسيحي ظهر في القرن الرابع على يد كاهن من الإسكندرية اسمه أريوس (256-336 م). معتقدات أريوس تدور حول العلاقة بين الآب والابن: يرى أريوس أن يسوع أو الابن ليس أزليا، أي أن هناك فترة بين وجود الآب والابن. يؤكد أن يسوع كائن فان ليس إلهيا، وليس شيئا أخر سوى معلّم يُوحى إليه.

3 نظرية الراهب بيلاجيو س (360-420 ق.م) الذي أنكر الخطيئة الأصلية وقال بحرية الإرادة التامة.

4 مذهب فلسفي يجعل الأولوية للفكر على الواقع، فيتعارض مع المادية.

5 نسبة إلى الباروخ اسبينوزا، فيلسوف هولندي (1632-1677).

6 الحلولية أو مذهب وحدة الوجود هو الإقرار بأنّ الله والعالم شيء واحد لا غير؛ ويمكن أن يفهم ذلك بمعنيين اثنين:

أ- الله هو الواقع الوحيد الذي توجد فيه الأشياء جميعا، وليس العالم شيئا آخر غير تجلياته وأحواله اللاجوهرية (هذا مثلا رأي سبينوزا).

ب- العالم هو الواقع الوحيد، وليس الله غير مجموع الوجود (وهو مذهب ديدرو ودولباك الذي يُنْعَت بالحلولية المادية أو الحلولية الطبيعية). جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر- تونس، 2004، ص 17.

7 نسبة إلى العالم النباتي براون.

2- أنّ هذه الفئة مدحوضةٌ تماما من ذي قبل ولا يمكن أن تحوي كلمة واحدة صادقة.

الحيلة 33: نظريا نعم، عمليا لا

"ربما هذا صحيح نظريا، لكن خاطئ عمليا". بفضل هذه المغالطة، نسلم بالأسس، رافضين النتائج؛ في تعارض مع قاعدة: النتيجة المستخرجة من الحجة الأولى تحكم بصحة الاستدلال a ratione ad rationatum valet consequentia. يطرح هذا الإثبات استحالة: ما هو صحيح نظريا يجب أن يكون كذلك صحيحا عمليا، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلأن هنالك خطأ في النظرية، أو لأننا أغفلنا شيئا، أو لأنّا لم ندخله (الشيء المُغْفَل) في الحسبان، وبالتالي، إنه كاذب أيضا نظريا.

الحيلة 34: زيادة الضغط

إذا لم يقدّم الخصم إجابة مباشرة لسؤال أو لحجة، ويتهرب بطرح سؤال آخر أو بتقديم إجابة غير مباشرة، أو يحاول أيضا أن يغير موضوع المجادلة، هاهنا البينة الواضحة أننا أصبنا نقطة ضعفه (أحيانا دون معرفة ذلك): من جهته، إنّ الصمتَ غيرُ كافٍ. يجب إذن الإصرار على النقطة التي وضعنا عليها الأصبع، والعمل على إزعاج الخصم، حتى عندما لا نعلم بَعْدُ بدقة مكمن الضعف الذي كشفناه.

الحيلة 35: المصالح أقوى من العقل

... التي، حالما تصير قابلة للتطبيق، تجعل جميع الحيل الأخرى زائدة غير ضرورية: بدل التأثير على الفكر بأسباب وجب التأثير على

الإرادة ببواعث، والخصم مثل المستمعين، إذا كانت لهم نفس مصالحه، سينحازون فوراً إلى رأينا، حتى لو كان هذا الأخير آتيا مباشــرة مــن جزيرة للحمقى. لأنه على العموم أوقية من الإرادة تزن أكثر من قنطار من الذكاء ومن القناعة. صحيح أن هذا لا يعمل إلاّ في بعض الظروف الخاصة. إذا كان بالمقدور تحسيس الخصم بأن رأيه، إن كان صحيحاً، سيسبب ضررا معتبرا لأهدافه، فإنه سيتخلى عنه بسرعة كحديدة حمراء من التوهج أخذها بغير حذر. مثلا، كاهن يدافع عن عقيدة فلســفية: يجب أن يوضح له أن هذه الأخيرة هي في تعارض مباشر مــع عقائــد أساسية في كنيسته، وسيتخلى عنها.

مالك أرضٍ يدّعي أنّ الآلية في بريطانيا لافتة للنظر، مادامت آلــة بخارية واحدة تقوم بعمل العديد من العمال: يجب إفهامه أن العربــات قريبا، هي الأخرى، ستجر بآلات بخارية، الأمر الذي سيجعل ثمنَ عديدِ خيولِ مَرْبَطِهِ ينخفض بشكل كبير - وسنرى. في حالات كهذه، شعور كل واحد يذعن للمثل: "يا له من تهوّر الإعلان عن قانون ينقلب ضدنا quam temere in nosmet legem sancimus iniquam".

الشيء نفسه إذا كان المستمعون يشكلون جــزءا مــن طائفتنــا نفسها، أو الجماعة نفسها، أو من نقابة الحرفيين نفسها، أو من النادي نفسه إلخ... وليسوا من طائفة الخصم. مهما كانت دعواه صــحيحة، بمجرد أن نلمّح إلى أنها تخالف أهداف الجماعة المذكورة إلخ...، سيجد جميعُ المستمعين حجج الخصم، مهما كانت جيدة، ضــعيفةً ورديئــةً، وحججنا، بالمقابل، مهما كانت مُختَلَقَةً من الــرأس حــتى القــدم، صحيحةً وملائمةً. جميعا، سينحازون إلينا، والخصم سيتراجع إلى الوراء خجلاً. سيظن المستمعوْن كذلك في غالب الأحيان أنهم اختاروا حسب قناعتهم المحضة، لأن ما هو غير ملائم لنا يبدو عموما مخالفا للعقل. ليس

العقل نتيجة نور شـاحب... الخ Intellectus luminis sicci non est.
يمكن أن تُعنوَن هذه الحيلة بـ: "مهاجمة الشجرة من الجذر"؛ وتسمى عادة: حجة المنفعة argumentum ab utili.

الحيلة 36: إرباك الخصم بكلام محال

الإرباك، وإدهاش الخصم بوابل تافه من الكلام. هذه الحيلة قائمة على أساس أنّ:

"عادة ما يعتقد الإنسان، إنْ هو لم يسمع إلاّ كلاما، ضـرورة أن يوجد فيه أيضا موضوع للتفكير".

إذا كان إذن واعيا في سريرته بمكامن ضعفه، وإذا كـان معتـادا على سماع أية أشياء ليس يفهمها والتظاهر بفهمها، نستطيع أن نفرضها عليه راوين له بجدية تامة تفاهات ذات طابع عالم أو غامض، إلى درجة أن يصبح عاجزا عن الاستماع، وعن الرؤية والتفكير، واعتبارها البيِّنةَ الأكثر تمنّعا على الدحض من دعوانا. كما نعرف، لقد استعمل بعـض الفلاسفة، حديثا، أمام الشعب الألماني، هذه الحيلة بنجاح لا نظير لـه. لكن بما أن الأمثلة بغيظة exempla sunt odiosa، سنأخذ مثالا جـدّ قديم لجولد سميث[1] Goldsmith في: قسيس فيكفيلـد le vicaire de wakefield. ص 34.

الحيلة 37: فاسد البرهنة علامة الخسران

(يفترض أن تكون من بين الأوائل). إذا كان الخصم محقا أيضـا في ما يتعلق بموضوع المجادلة، لكنه، لحسن الحظ، اختار بيِّنةً ضعيفة، فمـن

---

1 أوليفر جولد سميث oliver goldsmith، كاتب إيرلندي، ولـد سـنة 1728 وتوفي سنة 1774.

السهل علينا دحض هذه البيّنة، وندعي إذن أن هاهنا دحضا للكل. في الواقع، هذا يعود إلى اعتبار حجةِ ad hominem حجّةَ ad rem. وإذا لم تخطر بباله أية بيّنة صحيحة أو ببال مسانديه، فإننا قد ربحنا. مثلا، أنْ يقدّم شخص ما، لإثبات وجود الله، دليلا أونطولوجيا، والذي هو مدحوض تماما. بهذه الطريقة، يضيِّع المحامون الفاشلون القضية العادلة: يريدون إثباتها بقانون غير مناسب، والقانون المناسب لا يخطر ببالهم.

الحيلة الأخيرة: الحجّة على الشخص

إذا تبيّن لنا أن الخصم متفوق وأننا لن نربح، ينبغي اللجوء إلى أحاديث فظة، جارحة وخشنة. أن تكون فظا، هذا يتمثل في هجر موضوع النزاع (ما دمنا خسرنا اللعبة) لأجل التحول إلى الخصم، ومهاجمته بطريقة أو بأخرى في ما هو عليه [شخصه]: يمكن تسمية هذا الحجّةَ على الشخص[1] argumentum ad personam لتمييزه عن الحجة على الذات argumentum ad hominem. هذه الأخيرة تتحول عن الموضوع جدّ الموضوعي للتمسك بما قاله الخصم عنه أو سلّم به. لكن عندما نمر إلى الهجمات الشخصية، فنحن نترك تماما الموضوع ونوجه هجماتنا إلى شخص الخصم. نصبح إذن مهينين، ومؤذين، وجارحين، وأفظاظا. إنه نداء ملكات النفس لملكات الجسد أو للحيوانية. هذه القاعدة جدّ مُقدَّرةٍ، لأن كل واحد قادر على تطبيقها، وغالبا ما يتم الاعتماد عليها. والسؤال الذي يطرح الآن هو

1 قال أرسطو: "يكون من الضروري أحيانا أن نهاجم المخاطب نفسه لا أطروحته إذا كان المجيب يترصد كل ما يعارض السائل". عن هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، عن فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، بدون تاريخ، ص 130.

معرفة أيّ مدافعة يمكن استعمالها من طرف الخصم. لأنــه إن ســلك بالطريقة نفسها، انتهينا إلى مشاجرة، أو مبـــارزة، أو قضـــية قـــذف. سيكون التفكير في أنه يكفيه أن لا يكون فظا غلطة خطـــيرة. لأنّـــا، مبيِّنين بهدوء لأحد ما إنّه على خطأ وعن طريق اللزوم أنه يحكم ويفكر بانحراف، وهو الحال في كل انتصار جدلي، فإننا نجرحه كثيرا أكثر من جرحه بكلمات خشنة وجارحة. لماذا؟ لأن، كما يقـــول هـــوبس (في المواطن De Cive، الفصل: 1)، كل لذّة للفكر، وكل مـــزاج طيـــب مصدره الناس الذين بالمقارنة معهم نستطيع الحصول على تقدير عـــال عن أنفســـنا Omnis animi voluptas, omnisque alacritas in eo sita est, quod quis habeat, quibuscum conferens se, possit magnifice sentire de se ipso. لا شيء يعادل عند الإنسان إرضاء كبريائه، ولا جرح مؤلم أكثر من رؤية كبريائه مجروحا (من هنا صـــيغ مثل: "الشرف أولا" إلخ...). لقد نشأ إرضاء الكبرياء هـــذا أساســـا بسبب أننا نقارن أنفسنا بالآخرين، من جميع الجوانب، لكن خاصة من جهة الملكات العقلية. هذا بالضبط ما يحدث فعلا وبعنف شديد في كل مطارحة. من هنا غضب المهزوم، دون أن نكون قد أذيناه، ومن هنـــا لجوؤه إلى هذه الوسيلة الأخيرة، إلى هذه الحيلة الأخيرة التي ليس يمكن التخلص منها إنْ ظلّلنا متأدّبين. ومع ذلك، يمكن لرباطة جأش كـــبيرة أن تكون ملائمة هنا: يجب إذن، بمجرد أن يمر الشخص إلى الهجمات الشخصية، الإجابة بهدوء أنّ هذا لا علاقة له بموضوع المجادلة، والعودة إليه حالا والاستمرار في التدليل على أنه مخطئ دون إعارة الانتبـــاه إلى أحاديثه الجارحة؛ إذن، إلى حدّ ما، كما يقول تميستوكل Thémistocle لأوريبيـــاد Eurybiade: "اضـــرب، لكـــن اســـتمع πάταξον μεν ἄκουσου". لكن هذا ليس في متناول الجميع.

إنّ المدافعة الوحيدة الأكيدة إذن، هي تلك التي أشار إليها أرسطو في الفصل الأخير من الطوبيقا: لا تتجادل مع أي شخص كان، لكن فقط مع أناس تعرفهم وتعلم أنهم عقلاء كفاية[1]، حتى لا تتلفظ بسخافات، فتصير عرضة للسخرية، ولأجل الاستناد إلى حجج راسخة وليس إلى أحكام بلا جدوى، ولأجل الاستماع إلى براهين الآخر والاستسلام لها، وأخيراً أناس تعلم أنهم يقيمون وزنا كبيرا للحقيقة، وأنهم يحبون الاستماع للبراهين الجيدة، حتى من فم خصمهم، وأنهم يمتلكون حسّ الإنصاف كفاية لأجل أن يتحمّلوا كونهم على ضلال عندما تكون الحقيقة عند الطرف الآخر. ينتج عن هذا أنه من بين مائة شخص يوجد بالكاد شخص واحد يستحق أن نجادله. أما بالنسبة للآخرين، فلنتركهم يقولون ما يريدون، لأن من حق الناس أن يَهذوا desipere est juris gentium، ولنفكر في كلام فولتير: "السلام أفضل بكثير من الحقيقة". والمثل العربي يقول: "شجرة الصمت ثمرتها: السلام".

مع ذلك، فالمطارحة، بما هي مشادة بين فكرين، غالبا ما تكون مفيدة للطرفين لأنها تسمح لهما بتصحيح أفكارهما الخاصة واستحداث آراء جديدة. فقط، يجب على الخصمين أن يكونا على مستوى واحد من المعرفة والذكاء. إذا افتقد أحدهما المعرفة، فإنه لن يفهم كلّ شيء ولن يكون في المستوى المطلوب. وإذا كان الذكاء هو ما يفتقده، فالغضب والسخط الذي سَيُشْعِرُه به، سيحمله على اللجوء إلى سوء النية، وإلى الحيلة والفظاظة.

---

1 "قال: ولا ينبغي أيضا أن نجادل من اتفق من الناس، فإن الضرورة تدعو في مناظرة من اتفق من الناس أن تكون الأقاويل المستعملة معهم خسيسة". انظر: ابن رشد، تلخيص منطق أرسطو، مرجع سابق، ص 661.

ليس هناك فرق هام بين المطارحة في حـــوار خـــاص وعـــائلي in colloquio privato s familiari وبين مناقشة علنية وعامة حسب المكانة disputatio sollemnis publica, pro gradu الخ... باستثناء الحالة الثانية، من الضروري أن يكون المجيب Respondens دائما على صواب ضد المعترض l'Opponens، هذا ما يفسر أنه في حالة الضرورة ينبغي على رئيس المجلس l'Opponens أن يســانده، أو كـــذلك: في الحالة الثانية، الحجج جد صورية ويستحبّ إلباسها لبــوسَ الشـــكل الدقيق لنتيجة ما.

ملحق 1

أُستعْمِلَ المنطق والجدل عند القدامى كمترادفين؛ ولو أن λογίζεσψαι (تأمّل، فكّر، قوّم) وδιαλέγεσψαι (تحادث) هما شيئان مختلفان تماما. وكما يورده ديوجين اللايرسي، فإن أفلاطون كان أول من استخدم كلمة جدل. ونكتشف في فايدروس، والسفسطائي، والكتاب السابع من الجمهورية، الخ...، أنه يقصد هذا الاستعمالَ العاديَّ للعقل والمهارة في هذا الفن. استخدم أرسطو الجدل بالمعنى نفسه، ومع ذلك (حسب لورونتيوس فالا)، كان τά διαλεκτικά سيستعمل أولا المنطق بالمعنى λογική نفسه؛ نجد عنده δυσχέρειας λογικάς أيْ تمحك argutias (جدل فارغ)، مقدمات منطقية προτασιν λογικήν، معوصة منطقية ἀπορίαν λογικήν. هكذا إذن سيكون الجدل أقدم من المنطق λογική. استعمل شيشرون وكانتليان الجدل dialectica واللّوجيقا logica (المنطق) بالمعنى العام نفسه. يقول شيشرون[1] في cicéron lucullo (petites fausses): "لقد أُبتكِرَ الجدل للتمييز بين الصادق والكاذب Dialecticam inventam esse, veri et falsi quasi disceptatricem." وفي الطوبيقا topiques، الفصل 2: "درس الرواقيون بعناية مناهج الحكم،

---

1 هو ماركوس تليوس شيشرون (106 ق م-43 ق م)، خطيب ورجل دولة روماني. من مؤلفاته: "عن الخطيب De l'orateur"، "عن الإبداع De l'invention".

وهذا هو العلم الذي يدعونه الجـــدل Stoici enim judicandi rias diligenter persecuti sunt, ea scientia, quam Dialecticen appellant". ويقول كانتليان[1] Quintilien، الكتاب الثاني عشـــر، 2: "إنه لذلك هذا الجزء من الجدل، أو، كمـــا نحـــبّ أن نـــدعوه، فـــنّ المطارحة Itaque haec pars dialectique, sive illam disputatricem dicere malimus": هذا المصطلح الأخير بدا له إذن المرادف اللاتـــيني للجدل διαλεκτική (كل هذا حسب بـــيير دو لارامـــي[2] Petrus Ramus، Dialectica، Audomari Talaei proelectionibus illustrata، 1569). نجد كذلك هذه الطريقة لتوظيف كلمتيّ المنطـــق والجدل كمترادفتين، في العصر الوسيط والفترة المعاصرة، حتّى اليـــوم. ومع ذلك، اُستعملت مؤخرا كلمة "الجدل" - كـــانط خاصـــة - في الأغلب بمعنى تحقيري يفيد "الفن المغالطي للمطارحة"، وبناء عليـــه تم تفضيل كلمة "منطق" باعتبارها أكثر براءة. ورغـــم ذلـــك، فهاتـــان الكلمتان تعنيان في الأصل الشيء نفسه، واُعتُبِرَتا مُجدَّدًا كمتـــرادفتين خلال هذه السنوات الأخيرة.

---

1 هو ماركوس فابيوس كانتيليانوس (حـــوالي 42 م - 95 م)، بلاغـــي ومربٍّ روماني.

2 pierre de la ramée (1515- 1572)، منطقي وفيلسوف فرنسي.

ملحق 2

مؤسف أن كلمتي "جدل" و"منطق" استعملتا دائما كمترادفتين، وإنني أجد في الحقيقة صعوبة في التفرقة بين دلالاتهما كما أريد، وتعريف "المنطق" (من λογίζεσψαι: تأمل، حَسَبَ - ومن λόγος: الكلام والعقل، اللاّمنفصلان) "كعلم قوانين الفكر، أي نهج العقل"، و"الجدل" (من διαλέγεσψαι: تحادث، وبما أن، كل محادثة أفادت إما وقائع، وإما آراء، فهي تاريخية أو مداولاتية) كـ "فن المطارحة" (هذه الكلمة مأخوذة بمعناها المعاصر). جليٌّ أن للمنطق، إذن، موضوعاً محدداً محضَ قبلي a priori دون إضافة تجريبية: قوانين الفكر، نهج العقل (du λόγος) - النهج الذي يتبناه هذا الأخير عندما ينحصر في ذاته، وبالتالي في التفكير الانفرادي الخالص لكائن عاقل لا شيء يخدعه. سيبحث الجدل، بالمقابل، عن اجتماع كائنين عاقلين يفكران معا، الأمر الذي يجعل أنه بمجرد أن لا يكونا على الإيقاع نفسه، فإنه ينتج عنه مطارحة، أي مشادّة فكرية. يجب على هذين الشخصين، إذا اعتمدا العقل الخالص، أن يكونا على وفاق. فتباعداتهما تعود للتعددية التي هي سمة أساسية للفردانية. وهي إذن عنصر تجريبي. يمكن المنطق إذن، أو قل علم الفكر، أي نهج العقل الخالص، أن يُؤَسَّسَ قبليًّا a priori، وليس يمكن ذلك الجدلَ في الأكثر إلاّ بعديًّا a posteriori، بدءًا من المعرفة التجريبية بالاضطرابات التي يخضع لها الفكر الخالص بسبب تعددية الفردانيات عندما يفكر كائنان عاقلان معا، وبالوسائل التي

يستعملها الأفراد الواحد منهم ضد الأخر. يريد كل واحد فرض فكرته الخاصة كفكرة خالصة وموضوعية. لأنه من الملازم للطبيعة الإنسانية أنه، خلال تفكير مشترك (διαλέγεσψαι أي تبادل الآراء - ما عدا المناقشات التاريخية)، إذا تبيّن "أ" أنّ أفكار "ب" المتعلقة بالموضوع نفسه تختلف عن أفكاره، فهو لا يراجع تفكيره الخاص لأجل أن يحدد مكمن الخطأ فيه، بل يفترض أن هذا الأخير يوجد في فكر الآخر. معنى هذا أن الإنسان بطبيعته، يريد أن يكون دائما على صواب، وما ينتج عن هذه الخاصية، هو ما يعلّمه المبحث الذي أريد دعوته بالجدل، بل الذي سأدعوه "الجدل المرائي la dialectique éristique" (أو الجدل المشاغبي) تفاديا لكل سوء تفاهم. سيكون إذن مذهبَ النهج المستوحى من الإيقانية الموجودة في طبيعة كل كائن إنسي.

ملحق 3

أكبّ أرسطو في الطوبيقا[1] (الجدل les topiques)، بروحه العلمية المعتادة، على تأسيس الجدل بطريقة جدٍّ منهجيةٍ ونسقيةٍ، الأمر الذي يستحق إعجابنا وإن كان الهدف، وهو هنا عملي بالطبع، لم يتحقق فعلا. بعد أن فحص في الأنالوطيقا (التحليلات) المفاهيم، والأحكام والنتائج من جهة الصورة فقط، انتقل فيما بعد إلى المضمون الذي لا يتعلق في الحقيقة إلاّ بالمفاهيم لأنّه يقوم بها. ليست الدعاوى والنتائج في ذاتها إلاّ صورة خالصة، والمفاهيم هي مضمونها. إنّ نهجه هو التالي: كل مطارحة هي بالأساس دعوى أو مشكل (لا تتمايز إلا من جهة الصورة)، ثمّ قضايا مفروض أن تساعد على حلهما. يتعلق الأمر هنا دائما بالعلاقة بين المفاهيم في ما بينها. أولا، هذه العلاقات أربعة. في الواقع، نبحث بصدد مفهوم ما عن: 1) حدّه أو 2) جنسه أو 3) علامته المميزة، خاصَّته الأساسية proprium أو 4) عرضه

1 أي الجدل، وهو "الصناعة التي نقدر بها - إذا كنا سائلين - أن نعمل من مقدمات مشهورة قياسا على إبطال كل وضع يتضمن المجيب حفظه، وعلى حفظ وضع كلي يروم السائل إبطاله، إذا كنا مجيبين، وذلك بحسب ما يمكن في وضع وضع". ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الجدل، تحقيق محمد سليم سالم، ص 4.
أما أبو حيان التوحيدي فيقول معرفا الجدل: "يقال ما الجدل؟ الجواب: مباحثة مقصود بها إيجاب الحجة على الخصم حيث أقر، ومن حيث لا يقدر على أن يدفع". أبو حيان التوحيدي، المقابسات، دار الآداب، بيروت، الطبعة الثانية 1989، ص 286.

accidens أي ملكة ما، التي تتعلق به تعلّقا خاصا وحصريا أوْ لاَ، وباختصار، محمول. يجب إرجاع صورة كل مطارحة إلى واحدٍ من هذه العلاقات. هذا هو أساس كل جدل. يعرف أرسطو في الكتب الثمانية التي يخصصها له، جميع العلاقات التي يمكن أن تكون للمفاهيم في ما بينها من وجهات النظر الأربعة هذه، ويعطي قواعد كل علاقة ممكنة: كيف ينبغي لمفهوم أن يسلك تجاه مفهوم آخر لأجل أن يكون خاصتَّه proprium، أو عرضَه، أو جنسَه، أو حدَّه. ما هي الأخطاء التي يمكن أن ترتكب خلال التعريف، وما الذي يجب مراعاته في كل مرة عندما ننشئ نحن أنفسنا علاقة كهذه (κατασκευάν) وما الذي نستطيع فعله لدحضها، بمجرد أن ينشئها الخصم (ἀνασκευάζειν). ويسمي إعداد كل واحدة من هذه القواعد أو كل واحدة من هذه العلاقات العامة بين هذه المفاهيم التصنيفية، الموضع τόπος، locus، ويقدم ثلاثمائة واثنين وثمانين (382) من هذه المواضع الجدلية[1] τόποι،

---

1 نورد مجموعة من التعاريف لأهل الاختصاص:

- "في المنطق، نظرية المواضع أو "الأماكن المشتركة" أي الأصناف العامة التي يمكن أن يصار فيها إلى ترتيب كل الحجج أو الأبحاث والتوسع في الموضوعات. ومن ثَمّ، تشكل معرفة هذه الأماكن/المواضع، نوعا من سجل يسهل الإبداع". موسوعة لالاند الفلسفية.
- "الموضع هو المقدمة التي يحصر جزءاها جميعا جزئي مقدمة ما، أو التي يحصر جزءها المحمول محمول مقدمة أخرى، كقولنا إن كان الشيء موجودا في أمر ما، فضد ذلك الشيء موجود في ضد ذلك الأمر". الفارابي، المنطق عند الفارابي، تحقيق وتقديم وتعليق رفيق العجم، الجزء الثالث، كتاب الجدل، دار المشرق، ص 68.
- "إنّ الإسكندر وثاوفرسطس يحدان الموضع بأنه مبدأ، وأنه أصل منه تؤخذ المقدمات في قياس قياسٍ من المقاييس التي تعمل على المطالب الجزئية في صناعة صناعةٍ". ثم يشرح ابن رشد هذا التعريف بالقول: "ويعنون بذلك أنها أحوال وصفات عامة وقوانين

من كتاب الطوبيقا (الجدل) topiques. ويضيف إليها بعض القواعد العامة بخصوص المطارحة عموما، لكنها بعيدة عن أن تكون شاملة.

ليس الموضع Le τόπος إذن ماديا قحًّا، وليس يرتبط بشيء ما أو بمفهوم محدد، إنّما يخص دائما علاقة بين فئات كاملة من المفاهيم، علاقة يمكن أن تكون مشتركة بين عدد لا متناهٍ من المفاهيم حالما يُنظر إليها من خلال زوايا النظر الأربعة المذكورة سابقا. وهو الحال في كل مطارحة. ولزوايا النظر الأربعة هذه بدورها فئات فرعية. إنّ الفحص إذن دائما صوري إلى حدٍّ ما، لكن ليس صوريا خالصا إلاّ في المنطق مادام يهتم بمضمون المفاهيم، لكن بشكل صوري، مبيِّناً كيف ينبغي لمضمون المفهوم "أ" أن يسلك تجاه مضمون المفهوم "ب" حتى يتمكن هذا الأخير من أن يُحَدَّدَ كجنسه أو خاصته proporium (صفة مميزة) أو عرضه أو حدّه، أو حسب الأبواب التابعة لها: نقيضة (ἀντικείμενον)، سبب ونتيجة، ميزة وعيب، الخ. وتدور كل مطارحة حول علاقة كهذه. أغلب القواعد المصوغة من قبل أرسطو حول هذه العلاقات، والتي ينعتها تحديداً بمصطلح المواضع τόποι، هي تلك الكائنة في طبيعة العلاقات بين المفاهيم. كلّ واعٍ من تلقاء نفسه بهذه القواعد ويحرص كذلك على أن يحترمها الخصم، كما هو الحال في المنطق. ومن السهل جدّاً، في حالة خاصة، احترامها أو تبيّن أنها لم تكن كذلك إلاّ بتذكر الموضع τόπος الخاص بها. لهذا، فالفائدة العملية لهذا الجدل ليست بالقدر الكبير. لا يقول تقريبا إلا أشياء بدهية والتي

يصار منها إلى استنباط المقدمات الجزئية في قياس قياس". ابن رشد، تلخيص منطق أرسطو، مرجع سابق، ص 525.

- "معنى الموضع حكم من شأنه أن تتشعب منه أحكام كثيرة تجعل كل واحد منها جزء قياس"، ابن سينا، عن: حمو النقاري، منطق الكلام، دار الأمان، 2005، ص 293.

يراعيها العقل السليم من تلقاء نفسه. أمثلة: "عندما نثبت جنس شيء ما، يجب أن يُحمَل عليه نوع داخلٌ تحت هذا الجنس، وإلاّ فإن الإثبات كاذب. نزعم، مثلا، أنّ الروح متحركة. يجب إذن أن تملك نوعا من الحركة: طيران، مشي، نمو، نقصان... إلخ. إذا لم يكن الأمر كذلك، فإنها غير متحركة. إذن، الذي لا نستطيع أن نحمل عليه نوعا، ليس يمكن مطلقا أن يكون له جنس. إنه الموضع τόπος". هذا الموضع τόπος يصلح للبناء والهدم. إنه الموضعτόπος التاسع[1]. وبالعكس متى لا يُمْكِنْ حملُ الجنس، فالنّوعُ هو الآخر لا يمكن حمله. مثلا، شخص ما (زعماً) قال سوءا عن آخر: إذا أثبتنا أنه لم يقل شيئا على الإطلاق، فالأمر ليس كذلك، لأنه حيثما لا وجود للجنس لا يمكن للنوع أن يكون.

في فئة الخاصة propruim، الموضع المائتان وخمسَ عشرَ 215 locus مصوغ هكذا: "أوّلاً للإبطال: إذا ذكر الخصم كخاصيةٍ شيئا

1 "وينبغي أن ننظر إن كان يوجد للنوع الموصوف جنس ما آخر لا يحصر الجنس الموصوف ولا هو تحته. مثال ذلك إن وضع العلم جنسا للعدل، والفضيلة هي جنس العدل، وليس واحد من الجنسين يحصر الآخر، فليس العلم إذن جنسا للعدل. وذلك أنه يظن بالشيء أنه نوع واحد، إذا كان تحت جنسين أحدهما يحوي الآخر. وقد يتشكك مثل هذا الشك في بعض الأشياء، لأن قوما يظنون أن الفهم فضيلة وعلم. وليس أحد الجنسين محصورا في الآخر إلا أن الناس كلهم ليس يسلمون أن الفهم علم. فإن سلم أحد أن هذا القول حق، إلا أن كون أحد جنس الشيء الواحد بعينه تحت الآخر أو كونهما جميعا تحت جنس واحد بعينه يظن به أنه من الأشياء الضرورية، كما يعرض في الفضيلة والعلم، وذلك أن كليهما تحت جنس واحد، لأن كل واحد منهما ملكة وحال. فينبغي أن ننظر إن كان لا يوجد ولا واحد منهما للجنس الموصوف. وذلك أن الجنسين إن لم يكن أحدهما تحت الآخر، و لم يكونا تحت جنس واحد بعينه، فليس يمكن أن يكون الموصوف جنسا". أرسطو، منطق أرسطو، الجزء الثاني، كتاب الطوبيقا، المقالة الرابعة، ص 580.

غير مدرك إلاّ بواسطة الحواس، فإنه ذِكْرٌ في غير محله، لأن مـــا هــو محسوس فرضُه أنْ يصبح لا يقينيّا حالما نترك مجال المحسوس. مــثلا، إذا فرض كخاصة للشمس أنها النجم الأكثر إضاءة المارُّ فوق الأرض، هذا ليس مهمّا؛ لأن الشمس عندما تغرب، نحن نجهل إن كانت تمر فـــوق الأرض، لأنها توجد خارج مجال الحواس[1]. ثانيا لأجل البنـــاء: نعطـــي خاصّةً ما بدقّةٍ إذا عرضنا واحدة منها غير معروفة بواسطة الحواس، أو التي حضورها ضروري، في حال إنْ كانت معروفة من طرف الحواس. مثلاً، إذا ذكرنا كخاصة للمساحة أنها أوّلاً ملونة، هاهنا، بالتأكيـــد، صفة محسوسة. لكن هذه الصفة طبعا دائمة، وإذن صحيحة[2]". هذا هو ما يمكن أن يعطيكم فكرة عن جدل أرسطو. لا يبدو لي أنه بلغ هدفه،

---

1 "وبعد ذلك فإن المبطل ينظر إن كان وصف الخاصة التي في الظاهر أنها ليست توجد بجهة من الجهات إلا بالحس، فإنها ليست تكون موضوعة على ما يجب. وذلك أن كل محسوس إذا صار خارجا عن الحس صـــار غامضا ولا يتبين إن كان موجودا بعد، من قبل أنه إنما يعرف بالحاســـة التي تخصه فقط. وإنما يصدق هذا فيما ليس يلزم من الاضطرار دائمـــا. مثال ذلك أنه لما كان من وضع خاصة الشمس أنه الكوكـــب الـــذي يتحرك فوق الأرض وهو أضوأ الكواكب، فقد اســـتعمل في الخاصـــة الحركة فوق الأرض التي إنما تعرف بالحس، فلم يضع هـــذه الخاصـــة للشمس على ما يجب، لأنه ليس يعلم إذا غابت الشـــمس إن كانـــت تتحرك فوق الأرض لقصور حسنا عنها في ذلك الوقت". أرسطو، منطق أرسطو، الجزء الثاني، كتاب الطوبيقا، المقالة الرابعة، ص 619.

2 "فأما المصحح فينظر إن كان وصف الخاصة التي ليست ظاهرة للحس أو التي وإن كانت محسوسة يكون وجودها يبين من الاضطرار، فإن الخاصة على هذا الوجه تكون موضوعة على ما يجب. مثال ذلك أنه لما كان من وضع خاصة البسيط أنه الملون أولا قد استعمل شيئا محسوسا، أعني قوله: ملون؛ ووجوده ظاهر أبدا، صارت خاصة السطح بهذا موضوعة على ما يجب". أرسطو، منطق أرسطو، الجزء الثاني، كتاب الطوبيقـــا، المقالـــة الرابعة، ص 619.

وقد حاولت معالجته بشكل مغاير. إنّ طوبيقا شيشرون هي تقليد لطوبيقا أرسطو، عمل تذكري، جدُّ سطحي وفقير. ليست لدى شيشرون أقل فكرة واضحة عن ما هي طبيعة وغاية موضع ما topus؛ هكذا يثرثر ex ingenio (حسب فكرته) مُعِدًّا نوعا من السّلَطَة المفلفلة بالكثير من الأمثلة القانونية. إنّه واحد من أسوأ نصوصه.

لكن المفاهيم يمكن أن تندرج تحت بعض الفئات كالجنس والنوع، السبب والنتيجة، الصفة وضديدها، الملكة والعدم، الخ. وهذه الفئات منظمة بواسطة بعض القواعد العامة، المواضع les loci، τόποι. مثلا، موضع locus للسبب والنتيجة هو: "سبب السبب هو سبب النتيجة". تطبيق: "سبب سعادتي هي ثروتي، إذن فالذي وهبني ثروتي هو أيضا سبب سعادتي". مواضع loci المعارضة:

1- يستبعد الواحدُ الآخرَ، مثلاً مستقيم وملتو.

2- يوجدان في الموضوع نفسه: مثلاً، الحب يقبع في الإرادة، إذن الكراهية كذلك. لكن إذا كانت هذه الأخيرة موجودة في داخل الإحساس، إذن الحب أيضا. وإذا كان غير ممكن للروح أن تكون بيضاء، فإنها لا يمكن أن تكون كذلك سوداء. وإذا غابت الدرجة الدنيا غابت الدرجة القصوى كذلك. وإذا كان رجل ما غير عادل فهو غير عطوف.

تلاحظون إذن أنّ المواضع les loci هي بعض الحقائق الكلية التي تهم فئات كاملة من المفاهيم يمكن الرجوع إليها في الحالات الخاصة المقدمة لأجل أن نستمد منها حججنا، وكذلك لأجل الاستناد إليها كحقائق واضحة بالنسبة للجميع. ومع ذلك، فإن أغلب المواضع les loci هي جدُّ خداعة ومعرضة للعديد من الاستثناءات. مثلاً، موضع un locus يقول: الأشياء المتقابلة لها علاقات متقابلة، مثلاً،

الفضيلة حسنة والرذيلة قبيحة، الصداقة خيِّرة والعداوة سيئة. لكن: الإسراف رذيلة، فإذن البخل فضيلة، الحمقى يقولون الحقيقة، فإذن الحكماء يكذبون: هذا غير صحيح. الموت زوال، إذن الحياة ولادة: كاذب.

مثالٌ عن الطابع الخدّاع لهذه المواضع topi: يريد سكوت إريجين Scot Erigène في بحثه "في القدر de praedestination (الفصل الثالث)"، أن يدحض الهرطوقيين الذين افترضوا في الله قدرين (واحد لأجل خلاص المصطفين، وآخر لتعذيب الملعونين)، ويستعمل لهذه الغاية الموضع le topus التالي (اللهُ أعلمُ منْ أينَ أُخِذَ): "يجب أن يكون لكل الأشياء المتقابلة أسباب متقابلة. في الواقع، يمنع العقل أن يُحدِثَ سببٌ وحيد نتائجَ متعددة، لكن متقابلة Omnium, quae sunt inter se contraria, necesse est eorum causas inter se esse contrarias ; unam enim eamdemque causam diversa, inter se contraria efficere ratio prohibet". فليكن! لكنّ التجربة تُعلّمنا l'experientia docet أنّ نفس الحرارة تيبّس الطين وتليّن الشمع، ومئات الأشياء من هذا القبيل. ومع ذلك، يبدو الموضع le topus معقولاً مستساغاً. لكنه يقيم برهنته بهدوء على هذا الموضع le topus، وليست همّنا البتة.

تحت عنوان ألوان الخير والشر colores boni et mali، كَوَّنَ بيكون دي فيرولام[1] bacon de verulam تشكيلة كاملة من المواضع loti مع دحضها. يجب أنْ تقوم بمهمة الأمثلة. يدعوها مغالطة sophismata.

1 هو فرنسيس بيكون (1561- 1626)، فيلسوف إنجليزي.

يمكن اعتبارها كموضع locus، الحجَّةَ التي ردّ بها سقراط، في الوليمة le banquet، على أغاتون Agathon، الذي أضفى على الحب أسمى الصفات الممكنة، كالجمال، الطيبة... الخ، فأثبت له العكس: "ما نبحث عنه لا نملكه، وبما أنّ الحب يبحث عن الجميل والطيب، فهو إذن لا يملكهما". توجد ظاهريا، بعض الحقائق الكلية المنطبقة على الكل والتي بفضلها نستطيع أن نقرر بشأن الحالات المقدمة، مهما كانت مأخوذة بانفصال، دون الانشغال أكثر بما لها من خصوصية. (قانون المعاوضة[1] هو موضع locus جيد). لكن، هذا مستحيل، لأن المفاهيم تولد بالتحديد لأننا نقوم بتجريد الاختلافات، ولأنها تضم بالتالي الأشياء الأكثر تنوعا، وهو ما يتضح عندما نُقرِّبُ، بمعونة المفاهيم، بين الأشياء الأكثر تنوعا والتي لا يتم الحسم فيها إلا من خلال المفاهيم العليا. والإنسان ميّال بطبعه أيضا إلى الاحتماء وراء موضع عام le topus عندما يكون في وضعية حرجة أثناء المطارحة. إنّ المواضع les loci هي أيضا قوانين اقتصاد الطبيعة lex parsimonice naturae، كذلك، الطبيعة لا تفعل عبثا natura nihil facit frustra. في الواقع، جميع الأمثال هي مواضع جدلية loci مع إيحاء تطبيقي.

---

1 ويسمى أيضا قانون الأعداد الكبرى.

ثبت المفاهيم

débat	مجادلة
vrai	صادق
faux	كاذب
malhonnête	غير نـــزيه
combat	صراع
querelle	منازعة
joute	مشادة
intellectuel	فكري
terme	مصطلح
notion	معنى
concept	مفهوم
juste	صحيح
perceptions	إدراكات
sophisme	مغالطة
conversation	محاورة
argumentation	حجاج
loci	المواضع
controverse	مطارحة
parade	مدافعة

spécieux	مموه
fallacieux	مغالط
catégorie	مقولة
démarche	نهج
contradiction	المناقضة
topus	الموضع
proprium	الخاصة
genus	الجنس
accident	العرض
affirmation	إثبات
thèse	الدعوى
ad absurdum	البرهان بالخلف
prosyllogisme	القياس المركب
méthode	المنهج
argument	الحجة
péirastique	الممتحنية
érotématique	استجوابـــي
preuve	دليل
stéreotypes	المسكوكات
diversion	الحيد عن المطلوب

المراجع بالعربية

- أرسطو، منطق أرسطو، نقل أبـــي عثمان الدمشقي، حققه وقدّم له عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - الكويت، دار القلم - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1980، الجزء الثـــاني، كتـــاب الطوبيقا، الجزء الثالث، كتاب السوفسطيقا.
- أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد القادر قنـــيني، إفريقيـــا الشـــرق، 2000.
- ابن رشد، تلخيص منطق أرسطو، دراسة وتحقيق جيرار جهامي، المجلد السادس والسابع، دار الفكر اللبناني.
- ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الجدل، تحقيق محمد سليم سالم.
- حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقـــدي، أفريقيـــا الشـــرق، 2004.
- منطق الكلام، حمو النقاري، الدار العربية للعلوم، 2010.
- جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، 2004.
- أبو حيان التوحيدي، المقابسات، دار الآداب، بـــيروت، الطبعـــة الثانية، 1989.
- الفارابـــي، المنطق عند الفارابـــي، تحقيق وتقديم وتعليق رفيـــق العجم، الجزء الثالث، كتاب الجدل، دار المشرق.

- هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، عن فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، بدون تاريخ.
- المعجم الفلسفي، مراد وهبة، دار قباء الحديثة، 2007.
- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت - باريس.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، 1982.
- عالم الفكر، العدد 2، المجلد 40، أكتوبر- ديسمبر 2011.
- عادل مصطفى، المغالطات المنطقية، المجلس الأعلى للثقافة، 2007.
- لويس شيخو، علم الأدب، الجزء الثاني: في علم الخطابة، مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت، 1926.

المراجع بالفرنسية والأنجليزية

- John Locke, an essay concerning human understanding, edited by Roger Woolhouse, penguin classics, 1997, 2004.
- Doglas Walton, ad hominem arguments, the university of Alabama press, 1998.
- L'abbé J. Verniolles, cours élémentaires de rhétorique et d'éloquence, librairie delagrave, 1891.
- Michel meyer, qu'est-ce que l'argumentation, librairie J. Vrin, 2008.
- Aristote, les réfutations sophistiques, traduction par J.Tricot, librairie philosophique, J.Vrin, 2003.

فن أن تكون دائماً على صواب

أعظم سلاح المغالط هو التلبيس والتدليس، أي ديدنه أن يعتمد الحجج الملتوية المرائية وأن يدع المستقيمة منها. ولمّا كان الإنسان آثر لتلك المرائية وأهرع إليها، لِما في طبعه من أنانية ومحبةٍ للذات، إذ ليس عنده أوغل في المهانة من رؤيتها منكسرة ذليلة، ولما عُرف به من ميل إلى الخديعة والمكيدة، ولما أحَطتَ به من أنّ طريق قويم الحجج وصائبها أضيق، وأنّ طريق ملوي الحجج وكاذبها أرحب؛ وجب فحص هذا النمط من الحجج المرائية والمموهة قصد الوقوف على طبيعتها، ومن ثم، تحديد سبل نقضها. ذلك أنّ كل معتمد على حجج مموهة يفرض علينا خيارين: إما أن نبين مكمن المغالطة، فنقطع عليه مكالمته؛ وإما أن نجاريه في ذلك، ونعمل على التصدي له ونقض مغالطته. وما دام الأمر كذلك، فقد بانت أهمية العلم بالمغالطات للاقتدار على نقضها والتصدي لمختلف أساليب التضليل والتغليط. فعلى ناقض المغالطات أن يكون داريا بأصول وضوابط الصناعة، وأن يمتلك قدرات تحليلية وتقويمية تمكنه من اكتساب مختلف آليات العرض والاعتراض. فمن علمها وعمل بها نجح في أن يقطع على المغالط تدليله، وربما عكسه ضده، وقلب الحجة عليه. ولئن كان من يجهل القانون لا يُعذر، فإنّ من يجهل هذه الحيل أو المغالطات أولى به أن يغلب ويهزم. فمن أتقن هذا النوع من الجدل وأجاد أساليبه، فالنصر حليفه سواء في ذلك أكان محقا أو مخطئا.

آرثور شوبنهاور

ترجمة:
د. رضوان العصبة

مراجعة وتقديم:
د. حسان الباهي


ISBN: 978-614-01-0931-5
9 786140 109315





